

الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية

أبو الأعلى المودودي

دار الفكر

ابوالأعلى المودودي

الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية

دار الفكر - بيروت

بسم الله الرحمن الرحيم

المقدمة

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده

وبعد فما نحن اولا نقدم اليوم الى قراء العربية محاضرة جليلة ورسالة نفيسة للاستاذ السيد أبي الأعلى المودودي - امير الجماعة الاسلامية في باكستان. ولعمر الحق، انها محاضرة جليلة المعنى، خطيرة المبنى، لانها تبحث في موضوع هام وتتناول بالدرس والتحليل مسألة طالما أشكل على المفكرين حلها واستعصى على أولي العلم فك معضلتها. وذلك ان الناس - أولاً - يتحيدون في ارتفاع كلمة الكفر وانتكاس راية الاسلام في كل مكان، ثم يشكل عليهم قول الله تعالى: (وَأَنْتُمْ الْأَعْلَوْنَ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ). ويحرم هذا وذلك الى تأويلات بعيدة واقوال واهية ضعيفة. ومن الناس (١)

(١) اشارة الى رجل في باكستان، يتزعم حزباً سياسياً الى الآن، وكتابه (تذكرة) بالعربية والاردية مشحون بمثل هذه الترهات.

من اغتر بهذه الحال وبمثل تلك الآي الكريمة فذهب يقول ان
الاوربيين هم المسلمون الحقيقيون لأنهم هم الغالبون ، واسس
حزباً وقام بحركة عنيفة ، ثم لم يرجع الا بخفي حنين.

ألقيت هذه الخطبة في مؤتمر الجماعة الاسلامية السنوي
المنعقد في ال ٨ / ٥ / ١٣٦٤ هـ ٣١ / ٤ / ١٩٤٥ م امام جمع من
أعضاء الجماعة وأنصارها والمتأثرين بدعوتها ، في دارها المركزية
الواقعة في شرقي بنجاب ، وكان كاتب هذه السطور ممن
حضر الاجتماع (المؤتمر) واستمع الى هذه الخطبة المرتجلة ،
ولم ينس للآن ما كان لها من أثر عميق في نفوس الحاضرين .

أكتب هذه الكلمة ، وأرى بين يدي صور الاصدقاء
والزملاء والاخوان ماثلة ، وعلى وجوههم أثر مما في قلوبهم
من التأثير البالغ والتلف الشديد على صحة الخطيب ومستقبل
الدعوة في بلاد الهند ، اذ جاءت في ختام الخطبة كلمات
بهذا الشأن . وجملة القول أنها كانت خطبة تاريخية في تاريخ
الدعوة وكان لها أثرها المرجو .

قلت انها كانت خطبة مرتجلة ، الا انها دونت في ما
بعد ، وأعاد الاستاذ فيها النظر ونشرت بالاردية ، لغة الخطابة
والكتابة ولسان عامة مسلمي هذا القطر . وعني بتعريبها

الاخ العزيز السيد محمد عاصم الحداد ، زميلي في دار العروبة ،
وراجعها هذا العاجز ، فعسى ان تنال حظوة لدى قراء
العربية ويعم نفعها .

والله نسأل ان يوفقنا لسبيل الخير والرشاد ويجنبنا مزالق
الاقدام ومسالك الزلل والفساد . فانه هو المرجع وبيده
كل شيء وعليه التكلان .

بلدة راولبند (باكستان)
سود النوري
في ٢٣ / ١٢ / ١٣٧١ هـ

الأسس الأخلاقية للحركة الإسلامية

لعله قد تبين لكم من كتاباتنا ورسائلنا أن غايتنا النهائية التي نقصدها من وراء ما نحن بصدده الآن من الكفاح إنما هي « أحداث الانقلاب في القيادة » واعني بذلك أن أقصى ما نبتغي الوصول اليه والظفر به في هذه الدنيا أن نطهر الارض من أدناس قيادة الفسقة الفجرة وسيادتهم ، ونقيم فيها نظام الامامة الصالحة الراشدة. فهذا السعي والكفاح المتواصل نراه أكبر وأنجح وسيلة موصلة الى نيل رضا الرب تعالى وابتغاء وجهه الاعلى في الدنيا والآخرة.

ومن دواعي الاسف اننا نشاهد الناس اليوم جميعاً - المسلمين منهم وغير المسلمين - غافلين عن هذا الذي جعلناه غايتنا ومطمح أبصارنا. اما المسلمون ، فلانهم يعدونه غاية سياسية بحتة ولا يكادون يفتنون لمكانته وأهميته في الدين . وأما غير المسلمين ، فبما نشؤوا عليه من التعصب على الاسلام ولجلهلم وقلة معرفتهم بتعاليمه ، لا يعلمون أصلاً أن

قيادة الفجار والفساق انما هي منشأ جميع الكوارث والنكبات التي مني بها الجنس البشري ، وان سعادة البشر وغبطته انما تتوقف على ان يكون زمام امور الدنيا بايدي الصالحين العادلين . فكل ما نشاهده اليوم في الدنيا من الفساد والظلم والطغيان والفوضى الشاملة العالمية في الاخلاق البشرية ، وما سرى من السم الفتاك في عروق الحضارة والعمران والسياسة البشرية ، وان جميع وسائل الارض وسائر القوى التي ابتدعتها العلوم البشرية تستعمل في القضاء على الانسان واهلاكه وتدميره بدل ان تستخدم في اسعاده واعداد الوسائل والاسباب لفلاحه وهنائه وغبطته ، فانما تعود تبعة كل ذلك على ان الارض ، وان لم تكن خالية من الرجال ذوي الصلاح والعفاف والامانة ، قد استبد بزمام الامر فيها رجال انحرفوا عن الله تبارك وتعالى وانغمسوا باجمعهم في عبودية المادة ، وتكالبوا على شهوات هذه الدنيا الدنيئة . فان اراد احد اليوم ان يطهر الارض ويستبدل فيها الصلاح بالفساد ؛ والامن بالاضطراب ؛ والاخلاق الزكية بالاباحية ؛ والحسنات بالسيئات ، لا يكفيه ابدأ أن يدعوهم الى الخير ويعظمهم بتقوى الله وخشيته ويرغبهم في الاخلاق الحسنة ، بل من المحتوم عليه أن يجمع من عناصر الانسانية الصالحة ما يتمكن من جمعه ويجعل منها كتلة

متضامنة وقوة جماعية تمكنه من انتزاع زمام الامر من الذين يقودون موكب الحضارة في الدنيا ، واحداث الانقلاب المنشود في زعامة الارض وامامتها.

اهمية الزعامة وخطورتها :

وكل من له أدنى بصيرة بمسائل الحياة الانسانية ، لا يخفى عليه ان المسألة التي تتوقف عليها قضية صلاح الشؤون البشرية وفسادها ، انما هي مسألة زعامة الشؤون البشرية ومن بيده زمام امرها. وذلك كما نشاهد في القطار أنه لا يجري الا الى الجهة التي يوجهه اليها سائقه ، وان لا بد للركاب أن يسافروا - طوعاً او كرهاً - الى تلك الجهة نفسها. فكذلك لا يجري قطار المدنية الانسانية الا الى جهة يوجهه اليها من بأيديهم زمام امر تلك المدنية. ومن الظاهر البين ان الانسانية بمجموعها لا تستطيع بحال من الاحوال أن تأبى السير على تلك الخطة التي قد رسمها الذين بأيديهم وسائل الارض واسبابها طراً ، ولهم الهيمنة كل الهيمنة على أزمة الأمر ويدهم السلطة المطلقة في تدبير شؤون الانسانية ، وتتعلق بأذيالهم نفوس الجمهور وآمالهم ، وهم يملكون أدوات تكوين الافكار والنظريات وصوغها في قوالب يحبونها ، واليهم المرجع في تنشئة الطباع الفردية وانشاء النظام الجماعي وتحديد القيم الخلقية . فان كان هؤلاء الزعماء والقواد ممن يؤمنون بالله ويرجون

حسابه ، فلا بد لنظام الحياة بأسره ان يسير على طريق من الخير والرشد والصلاح ، وان يعود الاشرار الجبناء الى كنف الدين ويصلحوا شؤونهم . وكذلك تتمو الحسنات ويزكو غراسها ، واكل ما يكون من تأثير المجتمع في السيئات انها لا تربو ، ان لم تحقق وتنقرض آثارها . وأما اذا كانت هذه السلطة ، سلطة الزعامة والقيادة والامامة بأيدي رجال انحرفوا عن الله ورسوله واتبعوا الشهوات وانغمسوا في الفجور والطغيان ، فلا محالة ان يسير نظام الحياة بقضه وقضيه على البغي والعدوان والفحشاء ، ويدب ديب الفساد والفوضى في الافكار والنظريات والعلوم والآداب والسياسة والمدنية والثقافة والعمران والاخلاق والمعاملات والعدالة والقانون برمتها ، وتتمو السيئات ويستفحل أمرها ، وتأبى الارض ان ترحب بالحسنات ، ويضن الماء والهواء ان يفيضاً عليها شيئاً من القوت ، وتمتلىء الأرض ظمأً وجوراً . ففي مثل هذا النظام يسهل على المرء ان يسلك سبيل الشر ويصعب عليه ان يثبت على طريق الخير فضلاً عن ان يمشي عليها ويسير ، شأنه كشأن السائر في موكب من المواكب المحتشدة ، لا يحتاج الى بذل اي شيء من الجهد اذا اراد التوجه الى الجهة التي يقصدها الجمع ، بل هو يندفع اليها بدافع من الجمع قصداً ومن غير قصد . واما اذا أراد أن يتوجه الى جهة تخالف

جهة الموكب ، فلا يكاد يقدر على ان يخطو يضع خطوات
ولو استنفد فيها وسعه ، ويكون من شأنه أنه كلما تقدم
خطوة ، دفعته موجة من الزحام الهائل خطوات الى الوراء .
فكذلك النظام الجماعي اذا بدأ يسير على سبل الكفر
والعصيان بزعامة رجال من العصاة سهل على الافراد والجماعات
أن يسلوكوا سبل الشر من غير ان يبذلوا شيئاً من
جهودهم البتة . واما اذا أرادوا السير على طريق غير ذلك
الطريق المعروج ، فلا يمكنهم أن يتقدموا ولو بضع خطوات
لما يواجهونه من مقاومة الزحام الجارف المعارض الذي يؤخرهم
أميالاً وفراسخ الى الوراء مما استنفدوا من جهودهم للوقوف
في وجهه .

وذلك الأمر لم يعد بعد حقيقة نظرية غامضة تحتاج الى
برهان ، بل الحوادث الماضية قد صيرته حقيقة ظاهرة لا يمكن
الاجحود بها أو المكابرة فيها لكل من أوتي بها نصيباً من العلم
والمعرفة . وحسبكم شاهداً على ذلك ما حدث في بلاد الهند
في القرن الماضي من تبدل عظيم وانقلاب مدهش . أفلا
ترونها كيف تبدلت الأوضاع وتغيرت الآراء والنظريات
وتحولت الطبائع والسجاياء المتوارثة ، وتقلبت مناهج التفكير
وأساليب النظر ، وطراً الانقلاب والتغير على مقاييس الاخلاق

والمدينة وموازين الشرف والفخار ؟ . فهل بقي فيها شيء
سالمًا من عواصف التغيير والانقلاب ؟ فماذا ترى سبب
التغيير والانقلاب الواقع في هذه الديار بين عشية وضحاها ؟
أو يسعكم ان تبينوا له سبباً غير أن الذين كانت بيدهم زمام
شؤون هذه البلاد وكانوا متبوئين فيها مناصب الزعامة
والامارة طبعوا أخلاق أهلها وعقولهم وغرائزهم ومعاملاتهم
ونظام مدنيّتهم بطابعهم الخاص ، وصاغوها فيما شاءوا من
القوالب المعوجة ؟ ثم سرح النظر في الذين قاموا في وجه
هذا الانقلاب ولم يألوا في مقاومته جهداً إلا ما كان
مصيرهم ؟ أوفقوا أم أخفقوا في مسعاهم ، وإلى أي حد ؟
أوليس من باب الأمر الواقع المؤلم ان الذين كانوا في طليعة
المقاومين بالأمس تجد لليوم أبناءهم وأحفادهم مندفعين في
تيار المدينة الحاضرة وقد دخل في بيوتهم من موبقاتها
وشنائعها ما كان منحصرأ بالأمس خارج البيوت ، في
الأسواق والاندية ؟ أو ليس بما وقع وتحقق أن كثيراً من
بيوتات العلم والشرف التي يضرب المثل بها وبأهلها في الزهد
والورع قد نشأت فيها اليوم ناشئة قد افضى بها الضلال
والزيف إلى الزندقة والالحاد والكفر بالله ورسوله واليوم
الآخر ؟ أو يبقى عند أحد بعد هذه التجارب المتتابعة

والمشاهدات الماثلة للعيان من منزع للشك أن مسألة القيادة والزعامة انما هي مسألة المسائل في الحياة الانسانية وأصل أصولها ؟ وأهمية هذه المسألة وخطورة شأنها ليست بأمر مستحدث اكتسبتها في هذا العصر ، وانما هي مقرونة ومنوط بها منذ أقدم الازمنة ، وناهيك من شاهد بالقول السائر « الناس على دين ملوكهم » ومن ثم تكرر في الحديث أن علماء الامة وكبراءها هم المسؤولون عن اصلاح شأنها وفساد أمرها ، لما يمتلكون من ناصية الامر ويحملون بأيديهم من لواء الزعامة .

غاية الدين الحقيقية : اقامة نظام الامامة الصالحة الراشدة :
وأرى أن قد تبين لكم مما تقدم من الشرح والبيان ما لهذه المسألة من الاهمية البالغة في الدين . والظاهر ان أول ما يطالب به دين الله عباده ان يدخلوا في عبودية الحق كافة مخلصين له الطاعة والانقياد حتى لا يبقى في أعناقهم قلادة من قلائد العبودية لغير الله تعالى . ثم يتطلب منهم ألا يكون لحياتهم قانون الا ما أنزله الله تعالى وجاء به الرسول الامي الكريم ﷺ . ثم ان الاسلام يطالبهم أن ينعدم من الارض الفساد ، وتستأصل شافة السيئات والمنكرات الجالبة على العباد غضب الله تعالى وسخطه .

وهذه الغايات السامية لا يمكن أن يتحقق منها شيء ما دامت قيادة أبناء البشر وتسيير شؤونهم في الارض بأيدي أئمة الكفر والضلال ، ولا يكون من أمر أتباع الدين الحق وأنصاره الا أن يستسلموا لأمر هؤلاء وينقادوا لجبروتهم ؛ يذكرّون الله قابعين في زواياهم منقطعين عن الدنيا وشؤونها مغتربين ما يتصدق به هؤلاء الجبارة عليهم من المساحات والضمانات. ومن هنا يظهر ما للامامة الصالحة واقامة نظام الحق من أهمية خطيرة تجعلها من غايات الدين واسسه . والحق أن الانسان لا يمكنه أن يبلغ رضى الله تعالى بأى عمل من أعماله اذا تناسى هذه الفريضة وتقاعس عن القيام بها . ألم تروا ما جاء في الكتاب والسنة وتكرر من ذكر الجماعة ولزومها والسمع والطاعة ، حتى أن الانسان ليستوجب القتل اذا خرج من الجماعة ولو قيد شعرة وان صام وصلى وزعم انه مسلم . وهل لذلك من سبب سوى أن غرض الدين الحقيقي وهدفه انما هو اقامة نظام الحق والامامة الراشدة وتوطيد دعائه في الارض . وكل ذلك يتوقف تحقيقه على القوة الجماعية. والذي يضعف القوة الجماعية ويفت في عضدها ، يحني على الاسلام وأهله جناية لا يمكن جبرها وتلافيها بالصلاة ولا بالاقرار بكلمة التوحيد . ثم انظروا

الى ما كسب « الجهاد » من المنزلة العالية والمكانة الرفيعة في الدين ، حتى ان القرآن ليحكم « بالنفاق » على الذين ينكلون عنه ويثاقلون الى الأرض منه . ذلك ان « الجهاد » هو السعي المتواصل والكفاح المستمر في سبيل اقامة نظام الحق ، ليس غير . وهذا الجهاد هو الذي يجعله القرآن ميزاناً يوزن به ايمان الرجل واخلاصه للدين ، وبعبارة أخرى أنه من كان يؤمن بالله ورسوله ، لا يمكنه ان يرضى بتسلط نظام الباطل او يقعد عن بذل نفسه وماله في سبيل اقامة نظام الحق . فكل من يبدو في اعماله شيء من الضعف والاستكانة في هذا الباب فاعلم انه مذخور في ايمانه مرتاب في أمره . فكيف ينفعه عمل من اعماله بعد ذلك ؟

والمقام لا يتسع للافاضة في هذه المسألة وتفصيل القول فيها . الا ان الذي بينته آنفاً اراه كافياً لا يوضح هذه الحقيقة المهمة ، وهي ان اقامة الامامة الصالحة في ارض الله لها اهمية جوهرية وخطورة بالغة في نظام الاسلام . فكل من يؤمن بالله ورسوله ويدين دين الحق ، لا ينتهي عمله بأن يبذل الجهد المستطاع لافراغ حوائج قلب الاسلام ولا تبرأ ذمته من ذلك فحسب ، بل يلزمه بمقتضى

ذلك الايمان ان يستنفد جميع قواه ومسايعه في انتزاع زمام الامر من ايدي الكافرين والفجرة الظالمين حتى يتسلمه رجال ذوو صلاح ممن يتقون الله ويرجون حسابه ، ويقوم في الارض ذلك النظام الحق المرضي عند الله الذي به صلاح امور الدنيا وقوام شؤونها.

ثم اذا لم يكن من الممكن تحقيق هذا المقصد الاسمي الا بالمساعي الجماعية ، لم يكن بد من ان تكون في الارض جماعة صالحة تؤمن ببادئ الحق ، وتحافظ عليها ولا تكون لها غاية في الحياة الا اقامة نظام الحق وادارة شؤونه بغاية من الاهتمام والعناية . ولعمر الحق انه ولو لم يكن على وجه الارض الا رجل واحد مؤمن ، لما جاز له ان يرضى على نفسه بتسلط نظام الباطل ، حينما يجد نفسه وحيداً فاقداً للوسائل اللازمة ، او ان يحاول التستر وراء الحيل الشرعية كالاقتناع « بأهون البليتين » او ان يساوم نظام الكفر والفجور السائد في ايمانه ، ويقنع بحياة موزعة بين الكفر وطاعة الله . بل الحق انه لا يكون امامه الا طريق واحد : وهو ان يدعو الناس كافة الى منهاج الحياة الذي يرضى به الرب تعالى . فان لم يجب لدعوته احد ، فان قيامه على الصراط المستقيم واستمراره

في دعوة الناس حتى يلقي ربه ، خير له الف مرة من ان يتكذب الصراط الحق ، ويهتف بنعرات تهش لها وتفرح بها الدنيا المتسكعة في بيداء الضلال والغواية ، او يأخذ في المشي على طرق جائزة بزعامة الكفار . وان وجد من عباد الله رجالاً يستمعون لقوله ويلبون دعوته ، فعليه ان يؤلف منهم كتلة لا يكون من همها الا استنفاد جميع القوى الجماعية في سبيل تحقيق تلك الغاية التي نحن بصدها . هذا ما اراه مقتضى الدين الالهي حسب ما رزقني الله من معرفة كتابه العزيز وسنة رسوله الكريم ﷺ . وهذا ما يتطلبه الكتاب العزيز ، وهذه هي سنة الانبياء والرسل . واني على مثل اليقين من ذلك ، ولا اراني متزحزحاً عن هذه العقيدة وهذا الرأي ما دام كتاب الله يؤيدني وسنة الرسل الكرام من ورائي تأخذ بيدي وتحفزني للعمل والجد .

سنة الله تعالى في باب الامامة في الارض :

واذا ادركنا غاية مساعينا ومجهوداتنا هذه ، فعلينا ان نعرف وندرك سنة الله تعالى التي لا تبلغ هذه الغاية الا بموجبها . ان هذا الكون الذي نعيش فيه انما اوجده الله تعالى على قانون معين ، وقدر لكل شيء فيه ضابطة من الامر

لا يمكنه الانحراف عنها . وليس من الممكن ان يتحقق في هذا الكون سعي من المساعي بمجرد الرغبات الطيبة والنيات الخالصة ، ولا ان يؤتي ثمراته ببركات النفوس القدسية ، بل لا بد له من استيفاء تلك الشروط والمقتضيات التي قررها القانون الالهي لتحقيق مثل هذه المساعي . فان كنت زارعاً في حقلك مثلاً ، فمهما تكن قد بلغت من طيب الخلق والسيرة الطاهرة مبلغاً عظيماً وأكثر من التسبيح والتهليل ، فلن تنبت لك حبة ولن تؤتي ثمرتها إلا إذا اتبعت وراعت في مسعاك ذلك القانون الالهي الذي سنه الله تعالى لايتاء الزرع والحقول ثمراتها . وكذلك من المستحيل ان يبرز الى الوجود ذلك الانقلاب المنشود في نظام الامامة الذي جعلتموه نصب اعينكم في الحياة وتطلع اليه نفوسكم بمجرد الادعية الطيبة والأمانى المعسولة ، بل لا بد لكم لتحقيقه أن تحيطوا علماً بذلك القانون الالهي الذي تقوم بموجبه الامامة والسيادة في الأرض وتستوفوا جميع شروطه . وهذا موضوع مهم ذو خطورة ، قد الممت به غير مرة من قبل في كتاباتي ومحاضراتي ، ولكنني أحب أن أتناوله بالشرح والإيضاح في هذه المحاضرة ، لأنه لا تستبين لنا السبل الا بالاحاطة بها علماً ومعرفة .

إنكم إذا تأملتم في الانسان وتدبرتم وجوده في الدنيا ،
ظهر لكم أن وجهتين متناقضتين تختلفان وتزدوجان معاً .

فالوجهة الاولى أن له وجوداً طبيعياً وحيوانياً تجري
عليه نفس تلك القوانين التي تجري على سائر الطبيعيات
والحيوانات في هذا العالم . وهذا الوجود يتوقف عمله على
الادوات والوسائل والاسباب المادية والاحوال الطبيعية التي
ينحصر فيها سائر الموجودات الطبيعية والحيوانية . ولا يمكن
لهذا الوجود أن يأتي بعمل إلا في ضمن القوانين الطبيعية
وبواسطة الأدوات والوسائل والاحوال الطبيعية . وجميع
القوى في عالم الاسباب لها تأثير يوافقه أو يخالفه في أعماله .

والوجهة الاخرى التي هي متجلية في الانسان أنه من
البشر أي أن له وجوداً خلقياً لا يدع عن الطبيعيات بل
يسيطر عليها ويحكم فيها . حتى أنه ليستخدم جسد الانسان
الحيواني والطبيعي كآلة من آلات العمل ويحاول الاستيلاء
على أسباب الدنيا الخارجية والتصرف فيها . واما قواه العاملة ،
فإنما هي تلك الصفات الخلقية التي أودعها الانسان من لدن
ربه الكريم وانما تحكمه القوانين الخلقية دون القوانين
الطبيعية .

الاخلاق مناط رقي الانسان وانحطاطه :

وهاتان الوجهتان تتعاملان في الانسان مشتركتين، وعلى الوجه العمومي يتوقف نجاحه و اخفاقه ورقبه وانحطاطه على القوى المادية والخلقية معاً . وهو لا يكاد يستغني عن القوة المادية ولا عن القوة الخلقية . فإذا ما قدر له النجاح وبلغ أوج الكمال والرقى ، فهاتين القوتين . وإذا ما خسر وانحط ، فلأنه فقد هاتين القوتين أو أصبح نصيبه منها أقل من نصيب غيره . ولكنكم إذا تأملتم المسألة تأملاً وسبرتم غورها تبين لكم أن القوة المنفذة الفاصلة الحقيقية في الحياة هي القوة الخلقية لا المادية . ولا ريب أن الحصول على الوسائل المادية واستخدام الآلات الطبيعية ومسيرة الأسباب الخارجية للعوامل الداخلية أيضاً من الشروط المستلزمة للنجاح . وما دام الانسان يعيش في هذا العالم الطبيعي ، فإنه لا يمكنه الاستغناء عن هذه الشروط . ولكن الحق ، مع كل ذلك ، أن الذي يرفع الانسان ويضعه والذي له الحظ الأوفر واليد النافذة في سعادة الانسان وشقائه ، إن هي إلا « القوة المعنوية » . ومما لا يخفى عليكم أن الانسان لا يسمى إنساناً لأجل جسمانيته وحيوانيته ، بل لأجل صفاته الخلقية . وليس مما يميز الانسان من غيره

من الموجودات في هذا العالم ، أنه يحتاج لجسده إلى محل يحمله ، أو لأنه يتنفس ويأتي بالنسل والولد ، بل الميزة التي تفرق بينه وبين سائر الموجودات وتفضله عليها جميعاً ولا تجعله نوعاً مستقلاً عنها فقط بل وخليفة الله في الأرض أيضاً ، إنما هي ماختياره للصلاحية الخلقية والتبعية المعنوية وتفرد بهما . فإذا كانت الأخلاق هي جوهر الإنسانية وملاك أمرها ، فلا بد من الإقرار بأن الأخلاق لها القول الفصل في صلاح الحياة الإنسانية وفسادها . وأن القوانين الخلقية هي التي تسيطر على رقي الإنسان وانحطاطه .

فإذا استعرضنا الأخلاق بعد إدراك هذه الحقيقة ، وجدناها منقسمة إلى شعبتين مهمتين : الأخلاق الإنسانية الأساسية والأخلاق الإسلامية .

الأخلاق الإنسانية الأساسية :

والمراد من الأخلاق الإنسانية الأساسية تلك الصفات التي يقوم عليها أساس وجود الإنسان الخلق . وهي تشمل على سائر الصفات التي لا بد منها لفلاح الإنسان ونجاحه في هذه الدنيا . سواء أكان عمله وكفاحه لغاية صحيحة أو غير صحيحة . وسواء في بابها أيؤمن صاحبها بالله واليوم الآخر والوحي والرسالة أم لا ؟ وهل هو متحل بالطهارة النفسية

والنية الخالصة والعمل الصالح أم لا ؟ وهل كان سعيه وجهاده وراء غاية طاهرة ومقصد نزيه أم وراء غاية دنيئة وغرض عاجل ؟ فكل من تحلى بهذه الاخلاق واستوعبها في نفسه استيعاباً ، فلا بد ان يرى ثمرات جهوده يانعة عما قريب ويحيى نجاحه في هذه الدنيا كفلق الصبح ، فيبزو وينسبوا الذين لا يتحلون بهذه الاخلاق ، أو كان حظهم منها أقل وأنقص من حظه . وذلك بصرف النظر هل كان صدره مستضيئاً بنور الايمان أم لا ؟ وهل كانت حياته طيبة ام غير طيبة ؟ وهل يبتغي من وراء سعيه الخير أم الشر ؟ إن الانسان - مؤمناً كان او كافراً ، صالحاً كان او طالحاً - لا يمكن ان ينجح في هذا العالم ويكون في عداد الفائزين ، إلا إذا كانت فيه قوة الارادة والمضاء في الأمر والعزم والاقدام والصبر والثبات والاناة ورباطة الجأش وتحمل الشدائد والهمة والشجاعة والبسالة والنشاط والشدّة والبأس والولوع بالغاية والاستعداد للتضحية بكل شيء في سبيل تحقيقها ، والحزم والحيلة وإدراك العواقب والقدرة على العمل المنظم والشعور بالواجب والاحساس بالمسؤولية والقدرة على تقدير المواقف المختلفة ، والقدرة على صوغه وإفراغه في قوالب مناسبة حسب الظروف المتبدلة ، والقدرة

على تدبير الشؤون وفق تلك الاحوال والظروف ، وكان ملاكاً لعواطفه ورغباته ونزعاته النفسية ، وكذلك كان قادراً على استمالة اهواء الناس والاختذ بجماع قلوبهم وتحبيب نفسه اليهم واستخدامهم في ما يحتاج اليه .

ثم لا بد له من أن يكون متحلياً ولو بلمع من تلك السمائل الكريمة التي هي ملاك الآدمية وقوام أمرها في نفس الأمر والتي تضمن للانسان الوقار والثقة في هذه الدنيا كالأباء والسخاء والرأفة والمواساة وسعة القلب والنظر والصدق والامانة والنزاهة والوفاء بالعهد وكمال الرزانة والاعتدال والتهديب والطهارة والنظافة وضبط النفس والذهن .

هذه هي الصفات التي إذا حازها واستوعبها معظم افراد أمة من الامم او جماعة من الجماعات ، فكأنها عندها ثروة الانسانية ورأس مالها . فان هذه الثروة هي التي تكون على أثرها قوة جماعية قوية فعالة ، الا ان هذه الثروة لا يمكن ان تتركز وتتجمع بنفسنا وتنقلب الى قوة جماعية عظيمة محكمة فعالة في الامر الواقع ، الا إذا ساعدتها على أمرها جملة من الصفات الخلقية الاخرى ، وذلك مثل أن يكون جميع الأفراد او معظمهم متفقين على غاية لهم مشتركة بعينها وكانت أحب اليهم من أغراضهم الشخصية بل من نفوسهم

وأموالهم وأولادهم ، وكانوا متمتعين بالتحاب والمواساة في ما بينهم ، وكانوا متعاونين على الخير متساندين على البر ، وكانوا ، على الأقل ، ممن يضحون بأثرتهم وذاتيتهم إلى حد لا بد منه لسعي جماعي منظم ، ثم يميزون القائد الراشد من القائد المضل ، ولا يلقون اعباء قيادتهم وسيادتهم الا على كواهل رجال يصلحون لها ، وكان قوادهم وزعماءهم متحلين بصفات الاخلاص وحسن التدبير وما اليها من الصفات الاخرى المستلزمة للقيادة ، وكانت الامة او الجماعة انفسهم يعرفون طاعة قوادهم وينتقون بهم ويتطلعون إلى جعل جميع وسائلهم ومواهبهم الفكرية والجسمانية والمادية تحت تصرفهم ، وكان فيهم من الرأي العام الحي الفعال ما لا يسمع بأن ينشأ فيهم شيء يس بكيانهم ويهدد فلاحهم الجماعي .

فاذا كانت امامك غاية صحيحة منزهة ، فانما تحتاج إلى سلاح من الحديد لا من الحشب الذي اكلته الارضة ولا قبل له بتحمل شيء من الضرب الخفيف . وهذا ما اثار اليه نبينا الكريم ﷺ بقوله : (خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام) (١) اي ان الذي كان فيهم الجوهر الثمين في

(١) كما ورد في صحيح البخاري من حديث أبي هريرة بطرق متعددة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : تجدون الناس معادن خيارهم في الجاهلية خيارهم في الاسلام إذا فقهوا . (باب المناقب) .

الجاهلية ، إنما هم الذين نفعوا الاسلام واثبتوا انهم اكفاء للاضطلاع بكل امر من اموره . وغاية ما حدث فيهم من الفرق انه كانت مواهبهم وقواهم تستعمل في طرق الشر والمعصية ، فجاء الاسلام ووجهها الى طريق الرشد والخير . والحاصل ان نفايات القوم وحثالاتهم ما كان ليورجى منهم النفع لا في الاسلام ولا في الجاهلية . ان الظفر العظيم والفتح المبين - الذي ناله النبي ﷺ في العرب والذي لم يمض عليه الا مدة يسيرة ، حتى احس جزء عظيم من المعمورة من نهر السند إلى بحر الاطلسي بنفوذه وآثاره البالغة - أو كان لكل ذلك سبب غير انه ﷺ ظفر في جزيرة العرب بأحسن ذخيرة من الكفاءة الانسانية والاستعداد البشري ممن كانوا يملكون قوة مسخرة من السيرة الفردية والطباع المستقيمة . ارايتك انه لو كانت ظفر ﷺ من اصحابه رجال ساقطي الهمة متزعزعي الارادة ممن لا يوثق بهم ولا يعول عليهم فهل كان يحصل منهم على نتائج مثل تلك النتائج الباهرة التي حصل عليها .

الاخلاق الاسلامية :

ولنتناول الآن الشعبة الثانية للاخلاق ، وهي التي أعبر

عنها بالاخلاق الاسلامية ، وما هي بشيء مستقل عن الاخلاق
الانسانية الاساسية بل هي متممة لها ومكملة اياها . فأول
عمل يأتي به الاسلام أنه يزود الاخلاق الإنسانية بمرکز
صحيح وقطب مستقيم إذا اقترنت به حوائها إلى الخير والرشد
برمتها . وليست هذه الأخلاق في صورتها الأولى إلا قوة
مجردة يمكن استخدامها في الخير والشر معاً ، وإنما مثلها
كمثل السيف الصارم هو آلة للظلم والإرهاب والجور إن
كان في يد اللص السارق ، واداة للخير والحق إن كان
في يد المجاهد في سبيل الله . فلا يحكم على هذه الأخلاق
بالخير والصلاح لمجرد وجودها في فرد معين أو جماعة بعينها ،
بل يتوقف خيرها وصلاحها على كونها مستخدمة في السبيل
الاقوم ، فالاسلام يعنى بتوجيه هذه الأخلاق المحضة إلى
طريق الخير والحق . ومن المقتضيات المستلزمة لدعوة الاسلام
إلى التوحيد أن لا تكون الغاية الوحيدة والمقصد الجوهرى
من وراء جهود الانسان ومسايعه الا ابتغاء وجه الرب
تعالى (١) وان يحدد أفق فكرته ونطاق عمله بمحدود عينها له ربه

(١) كما أشير إلى هذا المعنى بـ (و إليك نسعى ونخفد) في الدعاء
المأثور المعروف .

الجليل (١) . فمن النتائج اللازمة لهذا الاصلاح الاساسي ان جميع الاخلاق الاساسية التي قد ذكرتها لكم آنفاً تتجه إلى الطريق المستقيم ، وأن القوى التي تتولد بوجود هذه الاخلاق لا تستعمل ولا تنفذ الا في سبيل اعلاء كلمة الحق الناصع بالطرق المباحة ، بدلاً من ان تستعمل في سبيل النفس أو الاسرة أو الامة أو الوطن بطرق جائزة وغير جائزة . وهذا هو الذي ينهض بهذه الاخلاق — على الوجه الايجابي — من مرتبة القوة المجردة ويجعلها خيراً شاملاً ورحمة للعالمين .

والمهمة الثانية التي يأتي ويعني بها الاسلام في باب الاخلاق ان يؤصل الاخلاق الاساسية الانسانية ويوطد اركانها في جانب ، ويوسع في تطبيقها على مظاهر الحياة الانسانية إلى حد عظيم في جانب آخر . وخذ لذلك الصبر مثلاً . فمهما بلغ الرجل الغاية في الصبر واستولى على الامل في قلبه ، فلا بد له ان يقف تحمله وينفذ ثباته عند حد معلوم اذا كان لاغراض عاجلة ليستمد قوته ويتغذى من الجذور الفكرية للشرك وعبودية المادية . اما الصبر الذي يستجلب قوته من جذور التوحيد

(١) وإلى هذا المعنى اشير بـ (إياك نعبد ولك نصلي ونسجد) في الدعاء نفسه .

والذي لا يبتغى من ورائه الا وجه الله تعالى ، فهو كنز
مكنون لا تصل اليه يد السارق ، وجيش عرمرم من الثبات
والبسالة لا يقدر ان يقف في وجهه سائر الشدائد والاهوال
الممكنة في هذه الدنيا . ثم إن الصبر لغير المسلمين من نوع
محدود ضيق جداً ، فينما تراه خائضاً غمار المعركة ثابتاً
امام هجمات الرشاشات والقنابل ثبوت الجبال الراسيات ،
إذا به تراه مستسلماً لشهوات النفس الجاحدة لا يكاد يملك
نفسه وعواطفه امام هزة يسيرة من هزات الغريزة
الناثرة . اما الاسلام ، فيطبق الصبر ويوسع في تطبيقه
على سائر الحياة الانسانية ، ولا يجعله سداً منيعاً ومعقلاً
حصيناً دون اخطار واهوال معدودة فقط ، بل دون
كل ما يحاول تنكيب الانسان عن الصراط المستقيم من
المطامح والاضطراب والوساوس والرغبات . والحقيقة ان
الاسلام يطبع حياة المؤمن بطابع من الصبر والاناة التي
من مبادئها الاساسية ان يظل قائماً على طراز صحيح مستقيم
من الفكر والعمل طول حياته مهما لقي في ذلك من
الاضطراب والاهوال والشدائد ، ولم يتراء له بارقة امل من
النتائج النافعة في هذه الحياة الدنيا ، وان لا يختار طريقاً
معوجاً من الفكر والعمل بأية حال ، وإن لمحت له جنة

مواصياً ناصحاً أميناً مخلصاً عادلاً صادقاً خلّاقاً لله جميعاً في كل حال ، ويريه وينشئه على سيرة طاهرة سامية لا يرجى منها إلا الخير ولا يخشى منها الشر أبداً ، ثم ان الاسلام لا يقتصر على ان يجعل الانسان صالحاً راشداً في ذات نفسه ، بل يجعله فوق ذلك « مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر » كما ورد في الحديث النبوي (١) . اي انه يفوض اليه وينيط به — على الوجه الايجابي — مهمة تعميم الخير واستئصال شأفة الشر في ارض الله . وفي طبيعة تلك الاخلاق والسيرة من الحسن والجذب وقوة التسخير البالغة ما إن تحلت به جماعة منظمة وسعت سعيها في القيام بما القى الاسلام على كاهلها من مهمة الدعوة اليه ، فلا قبل بمواجهتها ومقاومتها لقوة من قوى الدنيا كلها.

جماع القول في سنة الله في باب الامامة :

هذا وأريد الآن أن أبين لكم بكلمات موجزة تلك السنة التي سنّها الله تعالى في باب الامامة والتي مازالت نافذة

(١) عن سهل بن سعد ان رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : طوبى لعبد جعله الله تعالى مفتاحاً للخير مغلاقاً للشر . وويل لعبد جعله الله مفتاحاً للشر مغلاقاً للخير . (مشكاة المصابيح ، كتاب الاداب ، باب الرقاق)

من الازل وستبقى جارية ما دام النوع البشري حياً قائماً على
فطرته في هذه المعمورة ، فهاكم اياها :

١ - إذا لم تكن في الارض طائفة منظمة متصفة بكل
من الاخلاق الاساسية والاخلاق الاسلامية وهي تستخدم
- مع ذلك - الوسائل والاسباب المادية ، فلا بد ان يسلم
زمام القيادة والسيادة في العالم الى طائفة تكون اكثر جمعاً
واحتماراً للاخلاق الاساسية الانسانية والاسباب المادية من
غيرها وذلك بأن قد جرت مشيئة الله ان يبقى نظام هذا
العالم جارياً مطرداً على كل حال ، فمن ثم يفوض امر
ادارته وتسيير دفة شؤونه الى اعظم الطوائف المعاصرة قدرة
واكثرها كفاءة.

اما إن كانت في الارض فئة منظمة تمتاز من بين سائر
الفئات الموجودة وتفضلها جميعاً في الاخلاق الاسلامية
والاخلاق الانسانية العامة معاً ، ثم لا تقصر في الوقت نفسه
في استخدام الاسباب المادية حق استخدامها ، فمن المستحيل
عندئذ ان تتسلم ازمة قيادة الارض وتمتع بسيادتها فئة
اخرى بازائها ، فان ذلك بما يناقض فطرة الكون ويناقض
سنة الله التي سنّها في الشؤون البشرية ، ويناقض مواعيده

التي وعد بها المؤمنين الصالحين من عبادته في غير موضع من كتابه العزيز . والله تعالى لا يحب الفساد في ارضه ، واي فساد اشنع وابشع من ان ينقاد زمام امور الارض لفئة تعيث فيها وتملؤها ظلماً وجوراً ، مع ان فيها فئة صالحة قادرة على تسير دفقة حكمها طبقاً لمشيئة الرب ومرضاته تعالى .

وبما ينبغي ان لا يغيب عن البال ان نظام الاستخلاف في الارض لا يمكن ان يتغير ويتبدل بمجرد وجود فرد صالح او افراد صالحين مشتتين في الدنيا ولو كانوا في ذات انفسهم من اولياء الله تعالى بل ومن انبيائه ورسله . ان الله تعالى لم يقطع ما قطع من المواعيد لافراد متفرقين مشتتين ، وانما قطعها لجماعة منسقة متمتعة بحسن الادارة والنظام قد اثبتت نفسها - فعلاً - امة وسطاً ، او خير امة في الارض .

وكذلك ينبغي ان يكون منكم على ذكر بهذا الصدد ، ان نظام الامامة لن يحدث فيه اي تغير ولا انقلاب بمجرد وجود فئة مثل هذه في الارض ، بحيث انها اذا تألفت واخذت في الوجود مكانها ، تنزلت من السماء الملائكة ونحّت الفاسقين الفاجرين عن كرسي السيطرة والسلطان وبوؤوه هؤلاء الصالحين المؤمنين . بل بما لا مندوحة عنه لهذه الفئة المؤلفة ان تستمر

في المكافحة والمناضلة لقوى الكفر والفسق على كل خطوة من كل حلبة من حلبات الحياة الدنيا وثبت ما في نفسها من حب الحق وكفاءة للاضطلاع باعباء إمامة الأرض ببذل التضحيات والمساعي في سبيل إقامة الحق . وذلك شرط لم يستثن منه حتى الانبياء والرسل عليهم الصلاة والسلام ، فاني لأحد اليوم أن يتمنى على ربه أن يستثنيه منه .

الفرق بين قوة الأخلاق الأساسية والأخلاق الإسلامية :

والذي قد أرشدتني إليه دراستي للقرآن الكريم والتاريخ والامعان فيها أن الله سنة مطردة في باب التوازن بين القوتين المادية والحلقية ، وهي أنه إذا كانت القوة الحلقية بتأثيرها مرتكزة في الاخلاق الانسانية الأساسية ، فهناك للوسائل المادية أهمية عظيمة ، حتى إنه من الممكن إذن أن يستتب الأمر في الأرض لفئة لها النصيب الأوفر من الوسائل المادية ولو لم يكن عندها إلا قليل من القوة الحلقية ، على حين أن الفئات الاخرى التي قد تفوقها في القوة الحلقية تكون مغلوبة على أمرها لقلة الوسائل المادية فحسب . أما إذا كانت القوة الحلقية مدججة بأسلحة من الاخلاق الأساسية والإسلامية معاً ، فهناك لا بد أن تتغلب الاخلاق

— على قلة الوسائل المادية عندها — على سائر القوى التي لم تقم ولم تبرز إلى الميدان إلا مستندة إلى الاخلاق الاساسية والاسباب المادية فقط . ولك ان تدرك هذه الحقيقة عن هذا الفرق النسبي بين القوتين بأنه إذا كانت الاخلاق الاساسية تحتاج إلى مائة درجة من الوسائل المادية ، فالاخلاق الاسلامية والاساسية متحدة لا تحتاج في هذا الموقف نفسه إلا إلى ٢٥ درجة من تلك الوسائل المادية ، والذي يبقى من الخمس والسبعين درجة من قوتها المادية ، تستكملها الاخلاق الاسلامية بدافعها النفسي الكامن في طبيعتها . بل الذي تعلمنا تجارب العهد النبوي انه إذا كانت الاخلاق الاسلامية على ما كانت عليه اخلاق النبي ﷺ واصحابه الكرام — رضوان الله عليهم اجمعين — فان خمس درجات من الوسائل المادية تقوم مقام مائة درجة منها . وإلى هذه الحقيقة قد اشار القرآن الكريم بقوله : « إِنْ يَكُنْ مِنْكُمْ عَشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتِينَ » (١)

والذي ذكرت لك الآن ، لا اقله عن حسن عقيدة في شخص النبي ﷺ واصحابه فحسب ، ولا يذهب بك

(١) « الأنفال ٦٥ » .

الظن إلى اني اقص عليك شيئاً من قبيل المعجزات والكرامات، لا، لا، بل هي حقيقة فطرية ثابتة تحدث في هذا العالم - عالم الاسباب والعلل - وفق قانون العلة والمعلول، ويمكن تحققها كلما وجدت غلتها وقبل ان اتقدم في البحث يحمل لي ان اشرح لكم على وجه الایجاز كيف تقوم الاخلاق الاسلامية - وهي متضمنة للأخلاق الاساسية بطبيعة الحال - مقام ٧٥ بل ٩٥ درجة من القوة المادية.

لكم ان تدركوا هذه الحقيقة بانعام النظر في الصورة العالمية الحاضرة اليوم، فان الفساد العظيم الذي كانت قد اشتعلت وتأججت نيرانه قبل ست سنوات، قد انتهى اخيراً بانهزام ألمانيا، وتكاد ربحي الحرب تدور على اليابان بالهزيمة ايضاً (١). فالذي لا مجال فيه للريب ان الفريقين متساويان في الاخلاق الاساسية تقريباً، بل الذي يظهر من بعض الوجوه ان المانيا واليابان أتا بما يدل على تفوقهما في القوة الخلقية الاساسية بازاء الحلفاء. وكذلك إذا وازنا بين الفريقين في العلوم الطبيعية وطرق استخدامها،

(١) كتبت هذه الرسالة في أعقاب الحرب العالمية الثانية قبيل استسلام اليابان.

وجدنا كلا منها يناهض الآخر ويمائله ، بل الذي لا يخفى
 على احد ان المانيا - إن لم نقل اليابان ايضاً - كان لها
 قصب السبق على سائر الدول العالمية في هذا الباب. غير
 ان هناك شيئاً واحداً فاق فيه احد الفريقين على الآخر
 فوقاً عظيماً ، الا وهو ملازمة الوسائل المادية وموافقتها .
 فلم يتصر المنتصر إلا لما كان لديه من الرجال والعدة والعتاد
 والوسائل المادية الاخرى اضعاف ما كان عند قرينه .
 واضف إلى ذلك موقعه الجغرافي المنيع الذي لم يتيسر
 لقرينه ، وكذلك ما انعمت به عليه الاسباب التاريخية من
 ظروف واحوال لم تكن لقرينه . فلايكاد يكون من المتوقع اليوم
 أن تقوم امة قليلة العدد والعتاد في وجه امة قوية عندها وفرة
 عظيمة من الوسائل والاسباب المادية ، ولو كانت اسبق منها
 في التحلي بالاخلاق الاسلسية واعرف منها باستخدام العلوم
 الطبيعية ، وذلك إن كل امة تجعل نهضتها على قواعد من
 الاخلاق الاساسية والعلوم الطبيعية لا تخلو حالها من امرين :
 إما ان تكون غارقة في قوميتها طامحة ببصرها إلى تسخير
 العالم واحتجانه لمصلحتها ، وإما ان تكون حاملة بيدها
 لواء بعض مبادئ عالمية داعية اليها سائر امم الارض .

ففي الصورة الاولى لا يمكن ان تتال مبتغاها وتبلغ مرادها إلا إذ كانت اوفر الامم واكثرها حظاً من الوسائل والقوى المادية. وذلك ان سائر الامم التي تكون عرضة لمظالمها وجشعها الاستعماري ، لا بد ان تقوم في وجهها وتستमित في مقاومتها وتتقد بنار الغضب والنفور في مطاردتها . اما الصورة الثانية ، فلا شك انه من الممكن فيها ان تسخر فكرتها ونظريتها عقول الأمم وأذهانها فتستلم لدعوتها الانقلاية ، ولا تحتاج لنيل مبتغاها إلا إلى قليل من القوة المادية . ولكن الذي ينبغي ان لا يغيب عن الالباب ان القلوب لا تدعن لها بمجرد المبادئ العذبة والقواعد المعسولة بل لا بد لمن يرغب في تسخيرها أن يثبت أنه غذي بلبان النصح والصدق والامانة والطهارة ورحابة الصدر والسخاء والمواساة والشرف والعدل - أن يثبت انه قد ترعرع في حضن هذه الاخلاق الفاضلة الحقيقية التي تتحقق ناصعة غير مشوبة بأدران الاغراض الدنيئة في الحرب والسلم والانتصار والانزمام والصدقة والعداوة وما إليها من الاحوال الطارئة والمحن التي تعتور الحياة الانسانية ، هذه الاخلاق الفاضلة التي هي أسنى وأسنى من الاخلاق الاساسية العامة . ومن ثم تشاهدون

اليوم أن كل أمة تقوم نهضتها على دعائم الاخلاق الاساسية والقوى المادية المجردة ، لا بد أن تؤول جهودها ومساعدتها كلها الى الاغراض والاثرة الفردية أو الطائفية أو القومية الخالصة ، سواء أكانت قد جهرت بخطتها القومية أو اخفتها وراء ستار دعوة عالمية تحمل لواءها وتدعي الذود عن مبادئها ، كما تشاهد اليوم بأمر عينك في السياسة الخارجية للدول الاميركية والانكليزية والروسية ، فالظاهر في مثل هذا الكفاح والصراع ان تقوم كل امة في وجه امة اخرى وتحول بينها وبين تحقيق آمالها ومطامحها وتبذل بذل المستमित كل ما اوتيت من القوى المعنوية والمادية في نضالها وكفاحها ، وتأبى ان تسمح لها ان تشق الطريق لرقبها من بين ارضها ، اللهم إلا إذا غلبت عليها بوسائلها المادية الموفورة وطحنتها طحناً .

هذا ، وتمثلوا في مثل هذه الحال ان هناك فئة ، ولو كان منشؤها في اول الامر في امة من الامم ، إلا انها قد ظهرت بمظهر الجماعة ، والحزب ، لا بمظهر الطائفة في هذه الدنيا ، وهي منزهة من الاغراض الشخصية الطبقية او القومية وهي لا تبتغي من وراء جميع ما تبذل من المساعي

والجهود إلا ان تقيم في هذه الدنيا نظام الحياة الانسانية على اساس مجموعة من الاصول والمبادئ التي تؤمن بها ، ولا ترى سعادة النوع البشري وهنائه مضمونة الا في اتباعها والسير عليها ، وكذلك لا يشوب المجتمع الذين تؤلفه هذه الفئة اي شائبة من شوائب الفروق والامتيازات القومية او الاقليمية او الطبقية او النسلية ، ومن الممكن ان ينضم اليه وينخرط في سلكه جميع ابناء البشر بحقوق متساوية ومنزلة متماثلة ، وان ينال فيه منصب القيادة والامامة اي فرد او مجموعة من الافراد ، فاق سائر الافراد في اتباع هذه المبادئ والاصول والتحلي بمقتضياتها ، بقطع النظر عن قوميته النسلية او الاقليمية . بل قد يمكن في هذا المجتمع ان المغلوب على امره اذا آمن بهذه المبادئ واثبت نفسه اصلح واكفا للاضطلاع بالامور من الذي فتح بلاده وانتصر عليه ، يأتي هذا الفاتح ويسلم اليه جميع ثمرات مساعيه ويرضى به اماماً لنفسه يقتدي به ويأتمر بأوامره . فاذا قامت هذه الفئة ودعت الناس بدعوتها ، قام في وجهها الذين لا يرضيهم انتشار مبادئها في الارض والقوا في سبيل سيرها ورقبها المراقيل والعقبات . فوقتئذ يبتدىء

الصراع والمنازعة بين القوتين . فكما تزداد هذه المنازلة
شدة واشتباكاً تزداد هذه الفئة صبراً ومراساً وتأني بازاء
عدوها بأشرف الاخلاق وافضلها وتثبت بسلوكها وخطتها
العملية انها لا تبتغي من وراء جهودها إلا سعادة جميع
خلق الله . وهي لا تحارب ذوات أعدائها ولا قوميتهم وإنما
تحارب ضلالتهم ومناهجهم الزائفة التي لو تركوها لأصبحوا
أخواناً لهم متحابين فيما بينهم . وهي لا تطمع في اموالهم
و ثروتهم ، ولا تريد ان تضع يدها على تجارتهم وصناعتهم ،
وإنما تحرص كل الحرص على هدايتهم وتطمع كل الطمع في
سعادتهم الخلقية والروحانية التي إذا نالوها وظفروا بها ،
فهم احق بثروتهم وبكل ما لديهم . وهي لا تستخدم الكذب
والخدعة والماكر السيء ، ولا في اخرج المواقع واشدها ،
وهي تدفع السيئة بالحسنة ولا ترد على المؤامرات الدنيئة
إلا بالحلل والتدابير الشريفة ، ولا تكاد تحملها سورة
الانتقام والثأر على الجور والاعتداء ، وهي لا تقعد عن
اتباع ما قامت لدعوة الناس إليه من المبادئ حتى في اشد
مواقف الحرب واكثرها خطورة ، ولا تنفك قائمة في كل
الأحوال على الصدق والوفاء بالعهد وحسن المعاملة والاستمساك

بالعدل ، وثبتت نفسها مستوفية لشروط الامانة والنزاهة العليا التي كانت عرضتها على الدنيا في اول امرها مقياساً لها . وكلما التقى في ميدان الحرب الفريقان واصطفا وجهاً لوجه : الزناة والمدمنون للخمر والمقامرون والجفاة الغلاظ من جنود الاعداء في جانب ، والاطهار والاتقياء والعابدون الصالحون والمجاهدون الرحماء من رجال هذه الفئة في جانب ، تظهر مروءة كل رجل من هؤلاء الاطهار وانسانيتهم العالية ويبرز للعيان سموها وتفوقها على توحشهم وهمجيتهم ، وحينما يتسنى لأولئك ان يأتوا إلى هؤلاء جرحى او اسرى بعد الحرب ، تأخذ ارواحهم الحبيثة المدنسة بادناس الكفر والضلال في التطهر من ادرانها شيئاً فشيئاً لما يرون في هذا المجتمع من الخير والشرف والعلو والطهارة في الاخلاق . واما إذا اسر افراد هذه الفئة ووقعوا في ايدي عدوهم ، يزداد صقلاً وانجلاء في هذا المجتمع المظلم ما في انفسهم من جوهر الانسانية . واذا كتب لهم الاستيلاء على قطر من اقطار الارض ، يلقى منهم اهل العفو مكان الانتقام ، والمرحمة والنصفة مكان الظلم والعدوان ، والمواساة مكان المجافاة ، والحلم والتواضع مكان الغطرسة والكبرياء ، والدعاء مكان السباب ، والدعوة إلى المبادئ الحق مكان الدعايات

الكاذبة الملفقة ، ولا يكادون يقضون عجبهم حينما يشاهدون ان الفاتحين الامناء لا يطلبون منهم النساء ، ولا يبحثون عن اموالهم المحبوة ، ولا يتجسسون لاكتشاف اسرار صناعتهم ، ولا يتفكرون في القضاء على قوتهم الاقتصادية ، ولا يستخفون بكرامتهم القومية ولا يمسونها بسوء ، بل الذي يهمهم قبل كل شيء ان لا تنتهك حرمة لاحد من اهالي البلاد التي قد تولوا امرها ، ولا يصاب احد منهم في ماله ، ولا يجرم حقاً من حقوقه المشروعة ، ولا تنشأ فيهم رذيلة من الرذائل الخلقية ولا تبقى فيهم المظلمة الاجتماعية في اي شكل من الاشكال ، وبالعكس من ذلك فكلما احتجز الفريق المخالف بقعة من بقاع الارض ، ازتفتت شكاوى سكانها من مظالمه واعتداءاته ، ونادت بالويل والثبور . ولك ان تتمثل بنفسك مبلغ ما يحدث في مثل هذه الحرب من الفرق العظيم بالنسبة الى الحروب والمعارك القومية ، ولا بد ان تهزم الانسانية السامية في مثل هذه الحرب على قلبه وسائلها واسبابها المادية همجية اعدائها المحصنة بالحديد والمدججة بآلات الدمار والهلاك ، وان تغلب اسلحة الاخلاق الفاضلة المدافع والقنابل ، وان ينقلب الاعداء اصدقاء في عين الوقت الذي يكون وطيس الحرب فيه حامياً مضطرباً وان تهزم

القلوب وتفتح قبل الاجساد ، وان تدخل الاقطار تلو الاقطار في حوزة ملكها بدون ادنى مشاكسة او محاربة ، وان هذه الفئة الصالحة عندما تقوم بأمرها وتشمر عن ساق الجد في تحقيق مهمتها بعدد قليل من رجالها ، ونزر يسير من عتادها ، فلن تزال تحرز وتستكمل شيئاً فشيئاً كل ما تحتاج إليه من القواد والجنود والخذاق والمهرة في فنون الحرب ، وكذلك الاسلحة والذخائر وادوات الحرب من معسكرات الاعداء وثكناتهم انفسهم .

وإني لا اقول كل ذلك بناء على مجرد الحدس والتخمين . بل إنكم إذا اجلتم النظر في عهد النبي ﷺ وخلفائه الراشدين ، تجلّى لكم بدون ادنى شك ولا ارتياب ان هذا كله قد وقع وشهد عليه التاريخ من قبل ويمكن ان يتحقق اليوم بشرط ان ينبري لهذه التجربة رجال فيهم الجراءة والحمية والحماسة الكافية .

لعلكم قد ادركتم بما تقدم من البيان ان منشأ القوة ومنبعها الاصيلي هو القوة الخلقية . وإن كان في الارض اليوم فئة منظمة متصفة بالاخلاق الاسلامية والاخلاق الاساسية كليتها ، فمن المستحيل عقلاً والمتعذر طبعاً ان تتمتع بسيادة الارض وتمسك بأزمة امورها فئة غير هذه الفئة . وكذلك

أراك قد فطنت لما هو السبب الجوهرى لتأخر المسلمين
وانحطاطهم في العالم اليوم. ومن الظاهر البين انه لا يمكن
ان تبقى متمتعة بسيادة الارض وزعامتها وقيادتها امة
لا تستخدم الوسائل المادية ولا الوسائل الاساسية ، ولا تتزين
بالاخلاق الاساسية ، ولا توجد فيها بصفة جماعية الاخلاق
الاسلامية . ومن مقتضى السنة الالهية التي لا تبدل ولا
تغير ان تؤثر فيهم امة كفرة قد اثبتت ولا تزال تثبت
انفسها اكثر كفاءة منها في الاخلاق الاساسية واستخدام
الوسائل المادية لادارة شؤون الارض وتسيير دفتها وإن
كانت مجردة عن الاخلاق الاسلامية . فان كان في نفوس
المسلمين شيء من الملل والضجر من هذه الحال فليوموا
انفسهم لاسنة الله ، وليكن من نتيجة ذلك ان يفكروا
ويجتهدوا في تدارك ذلك النقص الذي قد أخرهم ونحاهم عن
قيادة الأرض وجعلهم مطية ذلولاً لكل قاهر مستبد.

أربع مراتب للمؤمنين الاسلاميه

وهذا الذي نعبر عنه بالاخلاق الاسلاميه ، يشتمل بموجب القرآن والسنة على اربع مراتب هي : الايمان والاسلام والتقوى والاحسان . وهي كلها مرتبة ترتيباً فطرياً بحيث ان كل تالية منها تتولد من سابقتها ولا تؤسس إلا عليها . فها دامت الطبقة الاولى منها غير محكمة متقنة ، لا يكاد يخطر بالبال ان تبني عليها الطبقة الثانية . فالايان بمنزلة الأساس في هذا البناء ، وهو الذي تقوم عليه طبقة الاسلام ، ثم تُشيد على طبقة الاسلام طبقة التقوى فطبقة الاحسان . والذي يبدو من ذلك أنه ما دام الايمان - وهو اساس الاسلام والتقوى والاحسان ، كما عرفت - منعدماً ، لا يمكن وجود الاسلام او التقوى او الاحسان بوجه من الوجوه . وكذلك ما دام الايمان ضعيفاً متزعزعاً ، يستحيل ان يشيد عليه أي بناء من الابنية ، وإن شيد فلا يخلو من أن يكون ضعيفاً متزعزع الاركان متداعي القواعد والاسس . وكذلك إذا كان الإيمان ضيقاً محدوداً فلا بد للاسلام والتقوى والاحسان جميعاً ان تحد بحدوده ولا تعدوه ابداً . فما دام الايمان والاحسان غير صحيح محكم واسع الاكفاف

والجواب ، لا يكاد يخطر ببال رجل له شيء من الامام بالدين ان يشيد عليه بناء الاسلام او التقوى ، او الاحسان ، وكذلك مما لا بد منه ان يهتم باصلاح الاسلام واتقانه وتوسيعه قبل التقوى ، وبإصلاح التقوى وإتقانه وتوسيعه قبل الإحسان ولكن كثيراً ما نشاهد الناس اليوم قد نسوا هذا الترتيب الفطري ولا يأبهون له فيشرعون في تشييد صرح التقوى والاحسان قبل ان يوطدوا لها اسس الايمان والاسلام ، واشد من ذلك مبعثاً للأسى والاسف ان الناس قد رسخ في اذهانهم تصور محدود للايمان والاسلام ، فيزعمون انهم يستكملون تقوam ويبلغون اعلى درجاته إذا افرغوا هندامهم وزيم وجلوسهم وقيامهم واكلهم وشربهم وما اليها من الاعمال الظاهرة الاخرى في قالب معين ، ثم يفوزون بأعلى درجات الاحسان اذا اختاروا لأنفسهم قدراً معيناً من النوافل والاذكر والاوراد وغيرها من الاعمال المستحبة شرعاً . ولكن كثيراً ما تشاهدون في حياة هؤلاء المتقين المحسنين بزعمهم امارات تشهد شهادة ناطقة بانهم لم يؤسسوا بعد صرح الايمان على اساس متين محكم . فما دامت هذه الاخطاء باقية ، فلا رجاء في نجاحنا في استكمال ادوات الاخلاق الاسلامية ابداً . فإذن لا بد

لنا من استكمال تصور المراتب الاربع : (الإيمان والإسلام والتقوى والإحسان) وادراك ما فيها من ترتيب طبيعي فطري .

الإيمان :

فلنبدا بالإيمان الذي هو الأساس للحياة الإسلامية . ولا يخفى على احد ان الإيمان عبارة عن الاقرار بالتوحيد والرسالة . فاذا ما اقر بها المرء استوفى الشرط القانوني لدخول المرء في الاسلام واصبح من عداد المؤمنين . فإذا كان يكون من حقه ان يعامل معاملة المسلمين . ولكن هل يكفي هذا الاقرار المجرد - الذي لا يعدو استكمال اداة قانونية - في ان يشيد على اساسه صرح الحياة الإسلامية بطبقاته الثلاث الباقية ؟ ومن دواعي الاسف وبواعث الاسى الشديد ان الناس لا يفهمون الامر إلا كذلك ، ولأجل ذلك كلما رأوا هذا الاقرار المجرد موجوداً شرعوا في تشييد صرح الاسلام العملي ، وكذلك التقوى والاحسان الذي لا ينهض ولا يطول على هذا الأساس الواهي الا ليسقط وينهار . اما الحياة الإسلامية الكاملة فلا بد لابرازها وتشيد صرحها ان يكون الإيمان شاملاً محيطاً بجميع جوانبه ، راسخاً بعيد

الغور في تأصل جذوره . فاي شعبة تقوت من شعبة التفصيلية
الواسعة تبقى تلك الشعبة نفسها في الحياة الاسلامية ناقصة
البناء ، وحيثما يبقى الضعف في رسوخ الايمان وبعد غوره ،
يبقى بناء الحياة الاسلامية في الموضع نفسه عرضة للضعف والوهن
والانهيار .

وخذوا لذلك الايمان بالله مثلاً ، وهو رأس الدين واللبنة
الأولى من اساسه فسوف تجدون أنه كلما جاوز الاقرار
بالله صورته العادية وتناولته التفاصيل ، ظهر بمظاهر مختلفة
لا تحصى ، فلا يبدو عند طائفة من الناس الاقرار بان الله
تعالى له وجود وهو خالق هذا الكون ولا شريك له في
ذاته ، وعند طائفة اخرى ينكمش نطاقه وينحصر في أن
الله هو الهمنا فعلينا بعبادته . وعند طائفة اخرى تحد صفات
الله تعالى وحقوقه تصرفاته - على وسعها ورحبتها - بأنه
عالم الغيب والشهادة ، السميع البصير ، مجيب الدعوات
وقاضي الحاجات ولا شريك له في استحقاقه لجميع الصور
الجزئية للعبودية ، وأن كتابه هو المرجع الاخير في جميع
الشؤون الدينية على حسب مصطلحهم المحدود . وبما لا مجال
فيه للريب ان هذه التصورات المختلفة لا يمكن ان يتكون
بها منهج ونظام للحياة واحد بعينه ، بل كلما كان التصور

ضعفاً محدوداً كانت الصبغة الإسلامية في الحياة العملية والاخلاق ايضاً محدودة ، حتى انكم ترون ان الذين قد بلغ عندهم الايمان بالله الى اقصى غاياته حسب التصورات الدينية الشائعة ، لا يعدو في نظرهم نطاق الحياة الإسلامية ان يجمعوا بين طاعة الله تعالى وبين الازعاج والتذلل للطواغيت ، او ان يضموا نظم الكفر الى نظام الاسلام حتى يحصل منها مركب جديد يجدون فيه كل ما تشتهي أنفسهم .

وكذلك يختلف مقياس رسوخ الايمان بالله وبعد غوره باختلاف الناس . فمنهم من لا يرضى ولو ببذل شيء حقير مما يعز عليه في سبيل الله مع اقراره وايمانه به . ومنهم من يكون الله تعالى احب اليه من بعض ما عنده من الاشياء ، كما تكون بعض الاشياء الاخرى احب اليه من الله . ومنهم من يشري في سبيل الله حتى نفسه وماله ، ولكن يعز عليه التضحية بافكاره وآرائه الخاصة او سمعته التي قد نالها بين الناس . فهذه هي المقادير والمقاييس المحككة التي يتعين بالنسبة اليها استقامة الحياة الإسلامية وتزول امرها . وهكذا يخون الانسان اخلاقه الإسلامية في نفس الموضع الذي يكون فيه بنيان الايمان ضعيفاً واهناً .

فالحق أنه لا يمكن أن ينهض صرح الحياة الإسلامية
 الكاملة الخالصة إلا على دعائم ذلك الاقرار بالتوحيد الذي
 يحيط بجميع نواحي الحياة الانسانية ، الفردية والجماعية ،
 والذي يحسب الانسان بموجه أنه هو وكل ما بيده من
 شيء ملك لله ويرى ان الله هو المالك الشرعي الحقيقي له
 وللعالم كله ؛ المعبود المطاع وله الأمر والنهي وأن لا ينبوع
 للهداية إلا هو ، وتطمئن نفسه بكل شعور الى ان
 الانحراف عن طاعة الله أو الاستغناء عن هدايته او اشراك
 غيره به في ذاته وصفاته وحقوقه وتصرفاته ان هو الا
 امعان في الضلالة من اي ناحية جاء او في اي لون كان .
 ثم ان هذا البناء - بناء الايمان بالله - لا يمكن توطيد دعائمه
 الا اذا راي المرء في باطن امره رأياً جازماً ، وقطع على
 نفسه بشعور كامل وارادة قوية أنه هو وكل ما بيده ملك
 لله وراجع الى مرضاته ، وقضى على ما في نفسه من مقياس
 للرضا والسخط وجعله مدعناً لرضا الرب تعالى وسخطه ، ونشأ
 عن نفسه الاثرة والكبرياء ، وصاغ نظرياته وافكاره وآراءه
 وميوله ونزعاته ومناهج تفكيره في قالب ذلك العلم الذي
 قد انزله الله تعالى في كتابه العزيز وخلع عن عنقه ربقة
 جميع انواع الولاء الذي لا يذعن لطاعة الله ، بل يمكن أن
 يقف في وجهها ، ومكن محبة الله تعالى ومودته من

سويداء قلبه ، ونفى عن أعماق فؤاده كل صنم يطالبه باجلاله
واكباره أكثر من الله تعالى ، وأدغم حبه وبغضه وصداقته
وعداوته ورغبته ونفوره وصلحه وحربه... الخ في مرضاته
تعالى حيث لا ترضى نفسه الا بما يرضى به الله تعالى ، ولا
تكره الا ما يكرهه الله تعالى . فهذه هي مرتبة الايمان
بالله الحقيقية وغايته المرموقة ، وبما لاخفاء فيه انه ما دام
« الايمان » ناقصاً محدوداً في سعته وشموله ونضجه واستحكامه
من هذه الوجوه ، فأنى يمكن وجود التقوى والاحسان ؟
وهل تسد هذا الحلل وتداركه المبالغة في اعفاء اللحي او
هيئة الازياء او عملية السجحات او قيام الليالي ؟

ولكم أن تقيسوا على ذلك الايمان بالنبوة والكتاب
واليوم الآخر... الخ . فانه لا يكمل الايمان بالنبوة الا اذا
آمن المرء بالرسول قائداً له مرشداً يهتدي بهديه ويتأسى
بأسوته في كل شأن من شؤون الحياة ، ورفض سائر الطاعات
والارشادات والهدايات التي تخالف هديه او تستغني عنه .
وكذلك يبقى الايمان بالكتاب ناقصاً ما دامت في القلب
شائبة من شوائب الطمأنينة بهيمنة اصول ومبادئ للحياة
غير التي جاء بها كتاب الله تعالى ، او كان القلب والروح
ينقصهما القلق على عدم اتباع الدنيا لما انزل الله واتخاذها

اياه نظاماً لحياتها. وكذلك لا يكمل الإيمان بالآخرة ما
 دامت نفس المرء لا ترضى بإيثار الآخرة على الدنيا ورفض
 القيم الدنيوية بازاء القيم الاخروية، لا ولا يقلقه الشعور بالمسؤولية
 الاخروية عند كل خطوة بخطوها في الحياة الدنيا. فحينما
 كانت هذه الاسس والدعائم منعدمة فأنى للحياة الاسلامية
 الشاملة ان يشيد بناؤها هنالك؟ فلما حسب الناس انه من
 الممكن ان يشيد صرح الاخلاق الاسلامية بدون توسعة
 هذه الدعائم واكملها واتقانها وارساخها، آل بهم الامر الى
 انك تجد اليوم باب التقوى والاحسان ومراتبها العالية
 مفتوحاً على مصراعيه حتى في وجوه القضاة الذين يحكمون
 بغير ما انزل الله، والمحامين الذين يتخاصمون على اسس القوانين
 غير الشرعية، والعمال الذين يدبرون شؤون الحياة الانسانية
 تحت نظام الكفر والالحاد، والزعماء والقواد الذين
 يتسابقون ويتنافرون في ما بينهم ليشكلوا الحياة البشرية
 ويؤسسوها على اصول المدنية والسياسة الكافرة. فهؤلاء القوم
 كلهم يعدون من المتقين المحسنين اذا اهتموا بافراغ ظواهر
 حياتهم وملاحهم في قالب معين، وعودوا انفسهم قدراً معلوماً
 من النوافل والاذكار والاوراد.

الاسلام :

فدعائم الايمان وأسه التي ذكرتها لك آنفاً ، إذا تأملت وتكملت وأخذت في الارض مكانها اللائق بها ، ينهض عليها بناء الاسلام الذي هو ثاني مدارج الاخلاق الاسلامية ، كما عرفت بما تقدم . فما الاسلام إلا عبارة عن ظهور الايمان في صورة العمل . فعلاقة الايمان بالاسلام كعلاقة البذر بالشجرة . فلا يظهر بالشجرة إلا كل ما يكون في البذر ، حتى انك اذا اختبرت الشجرة عرفت ما كان وما لم يكن في بذرها . فكما انه لا يكاد يمر بخلدك أن تنبت الشجرة وتبسط اغصانها من غير ان يبذر لها البذر في الارض . أو تأبى الشجرة ان تنبت وتؤتي ثمارها وإن يبذر لها البذر في أرض طيبة غير مجربة ؟ فهذا ما بين الايمان والاسلام بعينه . فحيثما كان الايمان ، كان لازماً أن يظهر في حياة الانسان العملية وأخلاقه ومعاملاته للناس وقطعه أو وصله للأرحام واتجاه سعيه وكفاحه وميل طبعه وذوقه ومصرف أوقاته وقواه وكفاءاته إلى غير ذلك من كل جزء من سائر مظاهر حياته . وإذا وجدت ناحية من هذه النواحي يظهر فيها شيء غير الاسلام ، فاعرف ان الايمان لا يوجد في تلك الناحية ؛ وإن وجد ، فلا قوة فيه ولا

حياة . وإذا كانت الحياة العملية تجري بقضها وقضيضها في مجرى غير إسلامي ، فاعلم أن القلب خلو من الايمان او قد بلغت الارض في جذبها وقحلها الى حد بعيد حتى لا يكاد بذر الايمان يؤتي فيها ثماره . فالذي أعتقده وأجزم به ، بعد ما قدر لي الله تعالى من مطالعة الكتاب والسنة ودراستها ما قدر ، أنه من المستحيل وجود الايمان في القلب وعدم ظهوره بمظهر الاسلام في الاعمال .

وأرجوكم في هذا المقام أن تجردوا اذهانكم من تلك المباحثات التي قتلها بحسب الفقهاء والمتكلمون في باب الايمان والعمل وما بينهما من العلاقة ، ولكم أن تفهموا هذه القضية وتحيطوا بها علماً من كتاب الله رأساً . فالذي يظهر من القرآن الكريم واضحاً جلياً أن الايمان الاعتقادي والاسلام العملي متلازمان في ما بينهما ، وقد قرن الله تعالى بينهما في غير موضع من كتابه العزيز ، وأنه ما وعد بما وعد من حسن الجزاء والثواب إلا عباده الذين هم مؤمنون اعتقاداً ومسلمون عملاً . ثم الذي يتراءى لك من هذه النظرة في القرآن أن الله تعالى كلما آخذ المنافقين بمجرأثرهم يقيم الحجة على قلة إيمانهم بأعمالهم السيئة ، ويجعل الاسلام العملي هو الدليل على الايمان الحقيقي . غير ان الذي لا ريب فيه ان

تكفير رجل من رجال الاسلام بحكم الشرع والقانون وإخراجه من حظيرة الامة المسلمة لا يتعلق بهذا المقام ، فان الحاجة فيه الى الحيلة والتأني شديدة جداً ، ولست الآن بصدد أن أذكر لكم ذنك الايمان والاسلام اللذين تترتب عليها الأحكام والقضايا الفقهية في هذه الدنيا ، وإنما انا بصدد ذكر ذنك الايمان والاسلام اللذين ينفعان أو يضران صاحبهما عند الله يوم القيامة ، وعليهما تترتب النتائج الأخروية . فانك اذا ضربت صفحاً عن القانون المجرد ، ونظرت بعين الحقيقة والواقع ، وجدت انه حينما كان السقم في استسلام المرء لربه وتفويضه امره اليه في أعماله ، وحينما كان رضا نفسه بجافياً لرضا الرب تعالى ، وحينما كان مكباً على اشغال واعمال غير السعي في سبيل اقامة الدين ، وحينما كانت جهوده ومسايعه تصرف في سبيل غير سبيل الله تعالى ، كان إيمانه مصاباً بالنقص والضعف . ومن الظاهر طبعاً انه لا يمكنه أن يشيد بناء التقوى والاحسان على أسس من الايمان والاسلام غير راسخة ، ولو حاول أشد المحاولة في تشبيه ظاهر صورته وزيه بصور المتقين وأزيائهم والتمشي على اقدامهم في بعض اعمالهم . فالصور الظاهرة الخلابة اذا كانت خالية من روح الحقيقة ، فانما مثلها كمثل رجل بالغ

الغاية في الجمال ، أبقى جسده على الارض في زي مزخرف
مبرقش بعد ما فارقت روحه . فان انخدعت بظاهر هذا الجسد
الملقى على الارض وعلقت به بعض آمالك ، لا تلبث ان
تكشف لك الحقيقة وتبوء بالحية والحسran في اول اختبارك
في عالم الواقع ، فهناك تعلم علم اليقين ان رجلاً دميماً إذا كان
حيّاً قوياً خير من رجل بالغ الغاية في الجمال والحسن اذا فارقت
الروح . نعم ! من اليسير عليك ان تخدع نفسك بالصور
الظاهرة الخلابه ، ولكنه لا يمكنك ان تترك بذلك اي أثر
في عالم الواقع ، او تنال وزن قطمير في كفة ميزان الله
تعالى يوم القيامة ، فان كنت لا تتخدع بالظاهر ولا تريد
إلا ذنبك التقوى والاحسان الحقيقيين اللذين ينفعانك في
اعلاء كلمة الدين في الدنيا وترجيح كفة الخير في الآخرة ،
فاعلم علم اليقين ان طبقتي التقوى والاحسان العاليتين
لا ترتفعان إلا إذا كان أساس الايمان راسخاً متصلاً وأصبح
الاسلام العملي - أي الطاعة والانقياد لله عملاً - دليلاً ساطعاً على
رسوخه وتأصله .

التقوى :

ولكم أن تجتهدوا في فهم التقوى وإدراك معناها قبل

أن تتناولوا ذكر تفاصيلها . فما التقوى ، في حقيقة الأمر ،
 عبارة عن زي مخصوص وهيئة معينة وطرّاز للمعيشة بعينه ،
 وإنما هي عبارة عن حال النفس التي تكون وتولد من
 خشية الله تعالى والشعور بالتبعية وتظهر وتجلّى في كل
 ناحية من نواحي الحياة ومظهر من مظاهرها . فالتقوى
 الحقيقية هي أن يكون قلب المرء مستتيراً بخشية الله والشعور
 بعبوديته ، وأن يكون وعيه للقيام بين يدي ربه والمسؤولية
 أمامه يوم القيامة شديداً قوياً ، وأن يدرك ادراكاً تاماً
 قوياً أن ليست هذه الحياة الدنيا إلا مضماراً لامتحان حيث
 قد بعثه الله تعالى ومتعه إلى حين من الزمن ، ولا تنحصر
 القضية في مستقبله الدائم الا في شيء واحد وهو : كيف
 يستخدم قواه وكفاءاته المختلفة في هذا المضمار للامتحان
 وكيف يكون تصرفه في ما أوتي من المال والمتاع حسب
 المشيئة الربانية ، وماذا يكون من معاملته للذين تتصل بهم
 حياته من مختلف الجهات ؟ فكل من نشأ فيه هذا الحس
 وذلك الشعور ، فقد تنبه ضميره وزاد شعوره الديني جلاء
 واصبح يحيك في قلبه كل مالا يوافق حب الله تعالى ،
 وصار يحاسب نفسه : ماذا ينشأ فيه من الميول والرغبات

وفيم يقتل أوقاته ويصرف مواهبه وقواه من الاشغال ،
وأخذ يكف نفسه عن الوقوع في المشتبهات فضلاً عن
المنكرات والمحظورات الصريحة الواضحة ، واجبره ما في
نفسه من الشعور بالواجب على القيام بجميع الاوامر والواجبات
بكل طاعة وامثال ، واثرت فيه خشيته لله أبلغ تأثير ، حتى
لتكاد تنزل اقدمه عندما يخاف على نفسه من الاجترار على
حدود الله واصبحت من ديدنه المحافظة على حقوق الله ، وحقوق
عباده في الارض ، ووجل قلبه من أن يأتي بشيء يخالف الحق
والصدق.

وهذه الكيفية والحالة لا تظهر في حياة الانسان بصورة
خاصة أو في نطاق للعمل ضيق محدود ، بل هي تستولي
على منهج فكرته وتتجلى في ماجريات حياته بأسرها ، وينشأ
فيه بموجب تأثيرها من السيرة الحنيفة والخلق النزيه الطاهر
ما لا يوجد فيه إلا الصفاء والطهارة والنظافة بطراز مخصوص
في جميع وجوهه المختلفة . أما الذين لم تكن كلمة « التقوى »
عندهم إلا عبارة عن اتباع المرء لبعض صور معينة ومواظبته
على بعض طرق معلومة وافراغه ظاهره - بطرق متصعة
غير فطرية - في قالب مخصوص ، فهناك تجدهم اشداء في
المواظبة على صور التقوى هذه التي قد تمرنوا وراضوا عليها

انفسهم بغاية من الاجتهاد والكد والاهتمام ، ولكن تجدهم في الوقت نفسه يظهر من نواحي حياتهم الأخرى من الأخلاق ومناهج التفكير وطرز العمل وطرق السعي والجد ما لا يلتئم ولا يتوافق مع مقتضيات الايمان البدائية فضلاً عن مقام التقوى الأسمى. وهذا كما قال السيد المسيح عليه وعلى نبينا الصلاة والسلام بلغته الخاصة : «أيها القادة العميان الذين يغصون من البعوضة ويبلعون الجمل . » (١)

ولك أن تدرك هذا الفرق بين التقوى الحقيقية والمتصنعة بأن أضرب لك مثلاً رجلين أحدهما يشعر بالنظافة والطهارة شعوراً كلياً ، وفيه ذوق بالغ في الصفاء والزكاء ، فهو يكره نفس القذر ولو كان في أي نوع من أنواعه أو شكل من أشكاله ، ويؤثر نفس الطهارة ويرغب فيها ولو لم يكن في وسعه الاحاطة بجميع مظاهرها . افيستوي هو ومن ليس عنده أي شعور بالطهارة ولكن يحمل بيده فهرساً مطولاً لاسماء طائفة من الاقدار والادناس قد استنسخه من هنا وهناك ، فيتجنب تلك الاقدار والادناس التي اندمجت في هذا الفهرس اشد تجنب ، ولكنه متلوث بكثير من الادناس المختلفة التي

(١) انجيل متى الباب ٢٣ الآية ٣٤ .

هي أشد وأغلظ من التي يتجنبها ، بمجرد أنها لم تندرج في هذا
الفهرس لسبب من الاسباب .

وليس هذا الفرق الذي انا بصدد بيانه لك في هذا
المقام بفرق نظري فحسب ، بل انك لتراه ملموساً متجلياً
بعيني رأسك في حياة اولئك الذين طبقت سمعة ورعهم
وتقواهم الآفاق ، يبالغون في الاهتمام بالجزئيات الشرعية
والحفاظة عليها حتى أنهم يفسقون كل من كان في لحته
شيء من القصر عن ذلك القدر المخصوص الذي قد عينوه
لطول اللحية ، ويتوعدون بدخول النار كل من اسبل ازاره
إلى اسفل من كعبه قليلاً ، ويكادون يعدون الانحراف عن
اتباع الاحكام الفرعية لمذهبهم الفقهي خروجاً من دين الله .
هذا في جانب ، وبجانب آخر قد اسرفوا إسرافاً شديداً
في اغفالهم لاصول الدين وكمياته ومبادئه الاساسية ، حتى
لقد جعلوا حياة المسلمين بأسرها قائمة على الرخص الشرعية
والمصالح السياسية واخترعوا من الحيل والمكائذ لاعراضهم
عن بذل شيء من جودهم في سبيل إقامة الدين مالا يأتي
عليه الاحصاء ؛ والذي هم باذلون فيه جل همهم ومسايعهم
ان يرسموا للمسلمين خطة « العيشة الاسلامية » تحت غلبة الكفر
وسيطرته واستيلاء نظامه ، وهم الذين أقنعت زعامتهم وامامتهم

عامة المسلمين بأنهم يستطيعون أن يعيشوا « عيشة دينية » في نطاق ضيق ويرثوا ذمتهم من جميع مقتضيات الدين ولو كانوا مغلوبين على أمرهم تحت نظام غير اسلامي ، بل ولو كانوا باذلين في سبيل خدمته مهجهم وارواحهم وليس لهم وراء ذلك مطمح يجاهدون في سبيله ويسعون وراء تحقيقه . وأشد من ذلك وأدعى إلى البكاء والويل انه إذا تجرأ أحد وعرض على هؤلاء القوم مقتضيات الدين الحقيقية وحاول لفت انظارهم إلى السعي في سبيل اقامة الدين ، فانهم لا يقتصرون على ان يصعروا خدودهم ولا يعيروا لقوله شيئاً من الاهتمام والعناية ، بل لا يذرون شيئاً من التعلات إلا أتوا به ليتقاعسوا عن هذا السعي هم انفسهم ، ويصدوا عنه غيرهم من المسلمين ، أو ليس من العجب العجائب ان كل ذلك لا يمس ورعهم وتقواهم في قليل ولا كثير ؟ ولا يكاد يشك اولو العقلية الدينية في كمال تقواهم اصلاً ؟ وكذلك لا يزال الفرق بين التقوى الحقيقية والمتصنعة يبدو في صور ومظاهر أخرى كثيرة ايضاً ويسهل عليك إدراكه اذا كان التصور الجوهري للتقوى واضحاً غير مبهم في ذهنك .

ولا يذهبن بكم سوء الظن بما قلت إلى أنني أريد الاستخفاف بما نص عليه في الحديث النبوي من الآداب

والاحكام المتعلقة بالهيئة الظاهرة والزي والملبس وآداب المعيشة ، ومعاذ الله أن أتجراً على مثل هذا الرأي أو يخطر لي ذالك على بال . والذي أريد القاءه في روعكم ان ملاك الامر وجوهره هو حقيقة التقوى لا مظاهرها المموسة هذه . فكل من نشأت وتأصلت في قلبه حقيقة التقوى فقد اصطبغت حياته كلها بصبغة من الخيفية والاستقامة واصبحت حياة اسلامية خالصة ، ولا يزال الاسلام بشموله الاتم يبدو ويتجلى شيئاً فشيئاً في أفكاره وعواطفه وميوله وذوقه الشخصي وانقسام اوقاته ومصارف مواهبه وطرق سعيه وكفاحه ومنهاج عيشته ومكسبه وانفاقه وما اليها من نواحي حياته الدنيوية الاخرى . اما اذا عكستم الامر وآثرتم المظاهر على الحقيقة وبالغتم في العناية بها فوق ما تستحقه ، وأبستم الا الامتثال لبعض الاحكام والوامر الظاهرية بطريقة غير فطرية من غير ان تلقوا في الأرض بذراً للتقوى الحقيقية وتتعهدوه بالسقي ، فلن تبوءوا إلا بالنتائج نفسها التي ذكرتها لكم آنفاً . ففي الصورة الاولى يحتاج المرء إلى غاية من الصبر والاناة والتريث ، فان النتائج فيها تتدرج في النماء وتتأخر إلى مدة من الزمن . وذلك كما تشاهدون في بذرة تلقونها في الارض ، فان الشجرة التي تنبت منها

لا تكبر وتتكل وتؤتي ثمارها وازهارها في يوم او يومين ، بل يمضي عليها ما يمضي من السنين الطوال العديدة . فلذا يمل هذه الصورة ويشمئز منها الذين في طبعهم النزق والاستعجال . أما في الصورة الثانية ، فان النتائج لا تلبث ان تتمثل امام اعينكم بكل سرعة وبكل سهولة . وذلك كما تنصبون في الارض قطعة من الخشب تشبه الشجرة في هيئتها وصورتها الظاهرة وتعلقون بها من الاوراق والازهار والاثار ما يحملها في أعين الناظرين . ومن ثم تجدون هذه العملية الثانية اليوم أكثر رواجاً وانفق سوقاً من الاولى في الاندية والمحافل . ولكن الحق أن الآمال والاماني التي تحققها شجرة فطرية لا يمكن ان يأتي ولا عشر معشارها من مثل هذه الاشجار المتصنعة .

الاحسان :

هذا ، وهيا بنا الآن لتتناول في الختام « الاحسان » فانه أعلى طبقات الاسلام وارفعها كما عرفتم . فالاحسان في الحقيقة ، هو عبارة عما يجعل المرء متفانياً في الاسلام من صلة قلبية بالله ورسوله وحب متأصل ووفاء صادق وبذل للمهج وتضحية بالنفوس والنفائس . فتصور التقوى الاساسي هو خشية الله وخوفه ، وهو الذي يستحث المرء على اتقاء

سخطه . وأما الاحسان فتصوره الاساسي هو حب الله الذي يحمل المرء ويحضه على ابتغاء مرضاته . ولكم أن تدركوا ما بين التقوى والاحسان من الفرق بأن أضرب لكم مثلاً موظفي حكومة من الحكومات . فمنهم من يقومون بأداء ما يلقي اليهم من الواجبات بكل شعور بالتبعية واجهاد النفس ويواظبون على جميع ضوابط الحكومة وقواعدها ولا يأتون بشيء يخالف مصلحة من مصالحها ويجلب عليهم اعتراضها . وبازائهم طبقة أخرى من المخلصين الصادقين الأوفياء الذين ينتصرون للحكومة بأنفسهم واموالهم ولا يقتصرون على اداء ما يلقي عليهم من الواجبات، بل لا يزالون يحيلون تفكيرهم ويصرفون همتهم في ايجاد طرق ومناهج للعمل يرقون بها صالح الحكومة ويعلمون بها كلمتها ، فيعملون ويجتهدون بموجب هذه النزعة أكثر مما يطالبون به . وكلما يرون شيئاً يهدد سلامة الحكومة ، يضحون في سبيل الدفاع عن كيانها بما في وسعهم من الانفس والاموال والاولاد . وكلما يجدون القانون تنقض قواعده يشعرون بألمه في صدورهم . وكلما يشمون رائحة للفدر يقلق بالهم ولا يدخرون ما في وسعهم من المهج والأرواح في إطفاء شعلته واجتثاث جذوره من الأرض . وإنما يكون أحلى أمانهم ، وهم في سبيله

يسمعون ، أن تكون دولتهم مرهوبة المقام مرفوعة الرأس من بين دول العالم كلها ، ولا يبقى صقع من اصقاعها الا ويكون علم دولتهم مرفوعاً في أجوائه . فهولاء هم محسنون للحكومة واولئك متقون لها . ولا شك ان المتقين يرفعون درجات وتدرج اسمائهم في جدول اسماء الموظفين الاوفياء للحكومة ، إلا ان المحسنين هم الذين ينعمون بأعلى الدرجات التي لا تتطلع اليها اعناق المتقين ولا غيرهم . ولكم أن تقيسوا على ذلك المتقين والمحسنين في الاسلام . فالمتحلون بالتقوى ، وإن كانوا رجالاً يوثق بهم ويعتمد عليهم ، ولكن قوة الاسلام وحيويته الجوهرية إنما تتجمع وترتكز في المحسنين وحدهم ، ولا ينهض بالمهمة التي يريدتها الاسلام في هذا العالم الا هذه الطبقة من المحسنين وحدها .

فاذا كنتم قد أدركتم حقيقة الإحسان هذه ، فتفكروا في شأن أولئك الذين يرون بأمر اعينهم ان دين الله قد رزىء وغلب على امره بيد الكفر وأهله ، وان حدود الله ما انتهكت واعتدي عليها فحسب ، بل يشاهدون أنها تكاد تنعدم من الوجود لأجل غلبة الكفر ؛ وان شريعة الله قد أهملت ونبذت وراء الظهور لا عملاً فقط بل بموجب القانون أيضاً ، وان أرض الله قد اعتلت فيها كلمة أعداء

الله ، ويشاهدون أن المجتمع الانساني العام قد دب ديب
الفساد في أخلاقه ومدنيته بموجب غلبة نظام الكفر ، بل
الامة الاسلامية نفسها قد رزئت ولا تزال تُرزأ بكثير
من الضلالات الخلقية والعملية بغاية من السرعة والشدة ؛
— يرون كل ذلك ويحسونه بين كل آونة واخرى . ولكن
لا تكاد تنتغص عليهم حياتهم ، ولا يكاد ينبض بهم عرق الغيرة
حتى يقوموا للعمل على أن يستبدلوا حياة صالحة راشدة
بهذه الحالة المخجلة الحاضرة . بل الأمر انهم بالعكس من
ذلك يسعون دائماً ويستخدمون كل ما أُوتوا من الذكاء
والفطنة في اقناع عامة المسلمين — مبدأ وعملاً — بغلبة نظام
الكفر وسيطرته عليهم . فكيف يمكن ان يعد أمثال
هؤلاء من طبقة المحسنين ، وكيف يمكن لهم أن يتمتعوا
بمرتبة الاحسان العليا مع هذا التهاون العظيم في أمر الله ،
ويظلوا مستمتعين بمجرد انهم يقومون الليالي ويؤدون صلاة
الضحى ويصرفون أعمارهم في الأذكار والاوراد والرياضات
الصوفية ويلقون دروساً للقرآن والحديث ويبالغون في
الاهتمام بفروع الفقه والسنن غير المهمة ويدربون أتباعهم
في زواياهم التي بنوها لتزكية النفس على فن الدين الذي
إن كان يشتمل على لطائف الحديث والفقه والتصوف ونكاتها ،

فانه لا يشتمل على لباب الدين وقوام أمره ، الا وهو عدم الاستسلام لحاكمية غير الله وبذل النفوس والنفائس في سبيل اقامة الدين واعلاء كلمة الحق .

وهذا الفرق بين الوفي الناصح والعدو الغادر لا تكاد تخلو منه حتى ولا عامة الدول والامم الدنيوية في الارض فان قامت ، مثلاً ، في بقعة من بقاع الدولة طائفة من الناس خارجة عليها أو تسلط عليها العدو من الخارج ، فالذين يستجيزون سلطة الاعداء والغادرين او يطعمون اليها إطمئناناً ويصالحونهم على شروط تتم على ذلتهم واستكانتهم أو يشكلون تحت اشرافهم نظاماً للبلاد لا تكون أزمة الامور وخزائن البلاد إلا بأيدي هؤلاء الاعداء ويقتنعون في انفسهم بجانب من الحقوق والتصرفات الجزئية ، لا تجد دولة من دول الارض أو أمة من اممها تعد امثال هؤلاء الناس الذين يميلون إلى العدو ويجنحون له ، من رجالها المخلصين الامناء الصادقين ، ولو كانوا بالغين اقصى الغاية في التشدد بزيهم القومي واتباع قانونهم القومي في شؤونهم الجزئية . وها هي البلاد التي خرجت من حوزة ألمانيا بعد الحرب العالمية الثانية ماثلة أمامكم ناطقة بصحة ما قررت . أفرأيتم بماذا يعامل فيها

الآن أولئك الاقوام من أهلها الذين مدوا إلى ألمانية يد المصالحة والتعاون عندما استولت على بلادهم ؟ فهؤلاء الامم والدول الغربية اللادينية ليس عندها الا مقياس واحد لاختبار الوفاء والاخلاص ، وهو مزاحمة الرجل لسلطة العدو على بلاده وعمله في سبيل القضاء عليها وبذله الجهد المستطاع في ارجاع تلك السلطة التي هو مدعي الوفاء بها . أفمن حسابكم اذ ان الله تعالى اقل من رجال الدنيا الناقصي العقل والبصيرة هؤلاء تمييزاً بين أوليائه وأعدائه . أفتراه ينخدع بطول اللحى وعملية السباحات والاشغال والاوراد والوظائف والتطوعات والمراقبات وما إليها من الأعمال الاخرى ، يبعدكم من أوليائه ؟

أمثلة لسوء التفاهم في هذا الباب وإزالتها :

سادتي الكرام ! الآن ، وأكاد أن أنتهي من كلمتي هذه ، أريد أن أبين لكم شيئاً واحداً مهماً . وهو أنه قد سيطرت على أذهان عامة المسلمين اليوم أهمية الفروع والظواهر بسبب كثير من التصورات والنظريات الخاطئة الضيقة حتى أصبحوا لا يكادون يبرحون هذه المسائل التافهة والظواهر السفسافة منها بذلت من جهودكم وحاولتم بكل وسيلة لفت أنظارهم

إلى أصول الدين وكتباته وجوهر الدين والخلق الاسلامي الحقيقي ، فكأنهم قد جعلوا هذه الفروع والمسائل الجزئية أصلاً لدينهم وأساساً يشيدون عليه بنيانه ، وهذا الوباء الشامل نرى كثيراً من أعضاء جماعتنا وأنصار دعوتها قد تأثروا به بعض التأثير . وقد استنفدت كل جهدي في ما مضى في إفهامهم وتلقينهم حقيقة الدين وما فيه لمثل هذه الأمور من أهمية وما يستحق التقديم وما يستحق التأخير من تعاليمه المتشعبة . وكذلك قد بلغني أن من الناس من يرون أن الجماعة ينقصها ذلك الشيء الذي يعبرون عنه « بالروحانية » على حين أنهم لا يكادون يحددون بانفسهم ما يريدون بتلك الكلمة من معنى . ومن ثم يرون أن يختاروا من الغاية ومنهاج السير إليها نفس ما اختارته الجماعة نفسها ، ثم يرجعوا لتزكية النفوس وتربية الروحانية الى الزوايا . والذي تتم عنه هذه الافكار والآراء ضرورة أنه لم ينضج بعد في الناس فهم الدين وإدراك تعاليمه بالرغم مما بذلنا لهذا الغرض من الجهود المتتابعة . وما قد بينت لكم آنفاً « الايمان والاسلام والتقوى والاحسان » فان كنتم ترون في هذه الكلمة شيئاً اختلقته من تلقاء نفسي معرضاً عما جاء في كتاب الله وسنة رسوله ، فلكم أن تبهوني عليه وتهدوني

إلى الصواب في أمره . وأما إذا كنتم تسلمون وتعترفون أن كل ما بينت من حقيقة هذه الكلمات الأربع هو موافق لما جاء في الكتاب والسنة ، فتفكروا هل يمكن أن توجد تلك الروحانية التي أنتم في صدد البحث عنها في أماكن لم تتحقق فيها مقتضيات الدين ، ولم تتأصل فيها جذور التقوى والإحسان ؟ أما فروع الشرع التي تعدونها من مطالب الدين الأولية ، فأرى أن أكرر لكم بيان منزلتها الحقيقية في الدين بشيء من الإيضاح والتفصيل ، حتى أتبرأ مما القى على كاهلي من تبعة البلاغ الثقيلة .

ولكم أن تفكروا قبل كل شيء لماذا ولأي غرض أرسل الله تعالى رسله وأنبياءه إلى هذه الدنيا ؟ وأي شيء كان ينقص الدنيا حتى بعثهم لإيجاده فيها ؟ وماذا كان فيها من فساد وأرسلهم لرفعه والقضاء عليه ؟ أفكان ذلك أن الناس ما كانوا يعفون لحاهم ، فأرسل الله تعالى رسله لدعوة الناس إلى أعفائها ؟ أم كانوا يسبلون أزهرهم فامر الله أنبياءه أن يدعوا الناس إلى الكف عن ذلك ، أم لم تكن هذه السنن التي تهتمون بها أشد اهتمام ، جارية في الأرض ، فجاءت الرسل لأجرائها وترغيب الناس فيها ؟ ولعمري إنكم إذا تأملتم في هذه المسائل ، شهدت لكم قلوبكم شهادة ناطقة

انه لم تكن مفسد الدنيا وسيئاتها من هذا القيل ، وما كان بعث الرسل لغرض من هذه الاغراض . فاذا لم يكن الامر كذلك ، فتفكروا من اي نوع كانت تلك المفسد والمنكرات التي كانت الدنيا مبتلية بها فجاءت الرسل لازالتها واجتثاث جذورها ، وماذا كانت تلك الحسنات التي كانت دعوة الانبياء إلى اقامتها وتحلية الحياة البشرية بمقتضياتها ؟ افيسمعكم ان نجيبوا على كل ذلك إلا بان المفسد والمنكرات الحقيقية التي كانت شائعة في الدنيا ، فجاءت الرسل والانبياء لتقليص ظلها والقضاء عليها : إنما كانت : انحراف الناس عن عبودية الرب تعالى وطاعته ، واتباعهم للقوانين والاصول الوضعية وعدم شعورهم بمسؤوليتهم بين يدي الله تعالى يوم القيامة ؟ فمنها نجم قرن الاخلاق الفاسدة ، وراجت في حياة العباد الاصول الحاططة المضلة وطبقت الفساد مشارق الارض ومغاربها . ثم كان الغرض من بعث الرسل وارسال الانبياء ان ينشأ في الناس الشعور بعبوديتهم وولايتهم لله ومسؤوليتهم بين يديه يوم القيامة ، وترقى الأخلاق الفاضلة ويقام نظام الحياة الانسانية على تلك الاصول والدعائم التي بها ينمو وينهض الخير والصلاح ويتقلص ظل الشر والفساد

وتتکس رايتهما ؟ فانما كان هذا هو الغرض الوحيد من
بعث الرسل والانبياء ، وللدعوة إليه جاء اخيراً خاتمهم وسيدهم
وسيد البشر أجمعين محمد بن عبد الله ﷺ .

ثم انظروا قليلاً في ما تحرى النبي ﷺ من التدرج
والترتيب للبلوغ الى هذه الغاية ؟ فقد قام بدعوة الناس
— أولاً وقبل كل شيء — إلى الايمان وأحكمه في قلوبهم
وأثبته على أوسع القواعد وأرحبها ، ثم نشأ في الذين
آمنوا تعليمه وتربيته طبقاً لمقتضيات هذا الإيمان تدرجاً ، الطاعة
العملية — اي الاسلام — والطهارة الخلقية — اي التقوى —
وحب الله والولاء له — اي الاحسان — ثم شرع بسعي
هؤلاء المؤمنين المخلصين المنظم المتواصل في تحطيم النظام
الفاسد للجاهلية القديمة واستبدال نظام صالح به ، قام على
القواعد الخلقية والمدنية المقتبسة من القانون الالهي المنزل
من الرب تعالى . ثم لما أصبح هؤلاء الذين آمنوا به ولبوا
دعوته من كل جهة — بقلوبهم واذهانهم ونفوسهم واخلاقهم
وافكارهم واعمالهم — مسلمين متقين محسنين بالمعنى الحقيقي
وانصرفوا بأنفسهم إلى ذلك العمل الذي ينبغي لعباد الله
المخلصين الاوفياء ان ينصرفوا اليه — إذن وبعد كل ذلك
اخذ النبي ﷺ يرشدهم الى ما يزين حياة المتقين المحسنين

من الآداب والعادات المهذبة في الهيئة والملبس والمأكل
والمشرب والمعيشة والقيام والجلوس وما الى ذلك من الشؤون
الظاهرة الاخرى . وكأني به فتت الذهب ونقاه من
الافساخ والاقذار اولاً ، ثم طبع عليه بطابع الدينار ،
ودرب المقاتلين اولاً ثم كسام زي القتال . وهذا هو
التدرج الصحيح المرضي عند الله في هذا الباب كما يبدو
لكل من تأمل القرآن والحديث وتبصر فيها . فان كانت
كلمة اتباع السنة النبوية عبارة عن اختيار المراء خطة العمل
التي كان قد اختارها النبي ﷺ تحت الهداية الربانية اكماً
لمشيئة الرب تعالى وتبرئة لذمته من مقتضيات العبودية ، فليس
من السنة في شيء ان تكسوا ملابس المتقين وتحاولوا
افراغهم في قلوبهم الظاهري المتصنع حتى يتشبهوا بهم في بعض
اعمالهم الرائجة الشهيرة المرغوب فيها بين عامة الناس من غير
ان تخلقوهم بأخلاق المؤمنين والمسلمين والمتقين والمحسنين
وتحلوم بصفاتهم الحقيقية . من الغش والخداع ان تضربوا على
قطعات من النحاس والرصاص بطوابع الدينار وتتفقوها في
السوق ، او تكسو الناس ملابس الجنود وتبوؤوهم مقاعد للقتال
في ساحة الحرب من غير ان تدربوهم على صفات البسالة
والشجاعة والوفاء والإيثار والتضحية . فمن نتائج هذا الغش

والخداع انه لا تروج اليوم دنانيركم الزائفة في اسواق العالم ولا يرجع اليكم جنودكم الموهوب بشيء من الظفر والانتصار في ميدان الحرب . فتعلمون اي شيء هو اعلی قدرأ وارفع منزلة عند الله ؟ فلتفرضوا ان لديكم رجلاً يؤمن بالله ايماناً صادقاً ، ويشمر بالمسؤولية شعوراً تاماً ويحافظ على حدود الله اشد محافظه ويؤدي كل ما عليه من واجب الولاء لله والاخلاص والتضحية في سبيله ، الا انه ناقص الحظ في ربه الظاهر وأحط كعباً في الآداب الظاهرة ؛ فاقل ما يكون له منزلة عند الله انه خادم وفي صالح ولكن فيه بعض من سوء الأدب ، وربما لا يتمكن بسبب ذلك من نيل المراتب العالية والدرجات الرفيعة عنده . ولكن هل تحسبون مع قلة عنايته بالزي الظاهر ان الله ربه وسيده يحيف عليه ويبخسه الاجر على هذا الولاء والاخلاص والتضحية ويصلبه النار بمجرد انه لم يكن جميل الهيئة حسن الآداب ؟ ثم افرضوا ان لديكم رجلاً آخر قد بلغ الغاية في الاهتمام بزيه الجميل الشرعي ويراعي اشد الرعاية في التزامه بالآداب الشرعية ، ولكنه ناقص الحظ في ولائه لله وشعوره بالتبعية وغيرته على الايمان ، فماذا يكون من تقدير الله لهذا الكمال الظاهر مع هذا التفريط العظيم والنقص البالغ ؟ وليست هذه بمسألة من

المسائل القانونية المعضلة نحتاج حلها والوقوف عليها إلى تصفح الكتب الضخمة ، وإنما يعلم كل فرد من افراد البشر بفضل عقله السليم ايّ هذين الامرين يستحق القدر والإجلال عند الله ؟ حتى إن الذين لم يؤثروا إلا قليلاً من العقل ومملكة التفكير من اهل الارض ليدر كون بكل سهولة انه لا يستحق اي تقدير او اجلال في حقيقة الامر . وهاهي الحكومات الغربية ماثلة بين ايديكم بما في اهلها من الافتتان بالازياء الظاهرة والاهتمام بالآداب والعوائد البادية للعيان ، افتعلمون ما هو اجل قدراً وارفع منزلة عندهم ؟ انهم اذا وجدوا ضابطاً من ضباط جنودهم يعمل الفكر والروية ويستنفذ القوى الجسدية والفكرية في اعلاء كلمتهم ورفع علمهم ولا يدخر شيئاً من مساعيه وجهوده ولا يأبى التضحية بنفسه ونفيسه عندما يبلغ الأمر مبلغ الجد يبالغون في اجلاله ورفع مقامه ولو بلغ في الجلافة وقلة الادب مبلغاً عظيماً : لا يخلق لحته إلى ايام ويلبس ملبساً غير منسق ولا يعرف آداب الأكل والشرب ويجهل فن الرقص جهلاً تاماً . وبالعكس من ذلك عندما يروّن ضابطاً آخر من ضباطهم يكون امة وأسوة - في نظرم - في زيه وهندامه وحسن آدابه

وتحليه بالعوائد والرسوم الرائجة في مجتمعهم ولكنه ناقص
الحظ في ولائه وتضحيته في سبيل الدولة ويؤثر نفسه
واستراحته ومصالحه الذاتية على مقتضيات الغيرة القومية
عند ساعة الجد والعمل ، فلا يتخرجون من محاکمته العسكرية
فضلاً عن ان يرفعوا درجاته ويبالغوا في اكرامه وتبجيله .
فاذا كانت هذه حال رجال الدنيا ناقصي العقل والمعرفة ،
فما ظنكم بربكم الذي لا يعزب عنه مثقال ذرة في الأرض ولا في
السما . افيستوي عنده الذهب والنحاس ، وينخدع بطابع الدينار
على وجه النحاس ، ويعد الذهب فلساً إذا كان مطبوعاً بطابع
الفلس ؟

ولا يحملنكم ما بينت آنفاً على الظن بأني بصدد نفي
المحاسن والمحامد الظاهرة او الاستخفاف بتلك الأحكام
والاوامر التي وردت بها السنة - على صاحبها الف نحية
وسلام - في شأن اصلاح وجوه الحياة الظاهرة وتهذيبها .
كلا ! بل الذي اقول به واعتقده ان العبد المسلم يجب عليه
الامتنال لكل ما امر به الله ورسوله ﷺ . وكذلك
أعتقد من نفسي ان الدين يريد ان يهذب ظاهر العبد كما
يريد ان يهذب باطنه ، ولكن الذي أريد ان أرسخه في
أذهانكم وألقيه في روعكم بوجه خاص في هذا المقام ان

باطن العبد واصلاحه وتهذيبه أرجح وأقدم من ظاهر العبد واصلاحه وتهذيبه . فنوروا باطنكم بجوهر الحقيقة قبل ان تفرغوا ظاهركم في قالب الحقيقة . ولكم ان تتفكروا وتستنفدوا قواكم في التحلي بتلك الخصال والصفات التي هي جديرة بالقدر والاجلال عند الله في واقع الامر والتي ما جاءت الرسل والانبياء إلا لترويحها وتنميتها . اما الزينة الظاهرة فاني واثق بان تتولد بنفسها نتيجة لهذه الصفات الباطنة . واما إن بقي فيها شيء من النقص ، فيمكن الاهتمام بتداركه عند اكمال المراتب والمراحل .

سادتي ورفقائي ! قد ألفت بين أيديكم هذه الخطبة المسببة لأبين لكم الامر الحق بكل ايضاح وتفصيل . وذلك اني أريد ان أبرئ ذمتي امام الله يوم القيامة من واجب شهادة الحق . فان الحياة لا عبرة بها ، ولا تدري نفس ماذا تكسب غداً ولا تدري نفس باي ارض تموت . واني ارى من الواجب على نفسي ان أبرئ ذمتي من مسؤولية البلاغ ، فاستوضحوني ايها الاخوان ان كان لديكم امر يحتاج الى مزيد الشرح والايضاح . وإن كان قد فرط مني شيء يخالف الحق ويضاده ، فردوه عليّ . وإن كنت قلت

الحق ، فاشهدوا به امام الله والملائكة والناس اجمعين .
(الاصوات : إنا شاهدون . إنا شاهدون) .

وفي الختام أدعو الله تعالى ان يجمعنا على الخير ويثبت
أقدامنا ويوفقنا لفهم دينه فهماً صحيحاً ويهدينا الى اداء جميع
مطالبه ومقتضياته طبقاً لهذا الفهم .

اللهم أرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً
وارزقنا اجتنابه .

وآخر دعوانا ان الحمد لله رب العالمين



الفهرس

المقدمة	٣
غایتنا ومطمح ابصارنا	٦
أهمية الزعامة وخطورتها	٨
غاية الدين الحقيقية: اقامة نظام الامامة الصالحة الراشدة	١٢
سنة الله تعالى في باب الإمامة في الأرض	١٦
الأخلاق مناط رقي الانسان وانحطاطه	١٩
الاخلاق الانسانية الأساسية	٢٠
الأخلاق الإسلامية	٢٤
جماع القول في سنة الله في باب الإمامة	٢٩
الفرق بين قوة الاخلاق الأساسية والأخلاق الإسلامية	٣٢
أربع مراتب للأخلاق الإسلامية	٤٤
الایمان	٤٦
الإسلام	٥٢
التقوى	٥٥
الإحسان	٦٢
امثلة لسوء التفاهم وإزالتها	٦٧
الخاتمة	٧٦

٨٠ ق. ل.